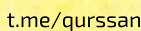
إغواء يوسف

عمرو العادلي

رواية





إغواء يوسف

عمرو العادلي

رواية

تصميم الغلاف : محمد عيد

رقم الإيداع : 2014/9233

I.S.B.N: 978-977-488-299-9

دار اكتب للنشر والتوزيع

الإدارة : 10 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة .

المدير العام : يحيى هاشم

هاتف : 01144552557 - 01147633268

E – mail :daroktob1@yahoo.com

Facebook : دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية ، 2015م

إغـــواء يوســـف

عمرو العادلي

رواية



دار اكتب للنشر والتوزيع

إهداء

إلى أمّي وأبي

وفيما أبحث عنكَ، وجدتُ نفسي

غياب

اليوم، أتممتَ أربعة عشر عاما، لابد اخشنَ صوتك، ونبتتْ بعض الشعيرات تحت فتحتيّ أنفك، لا تبالي لو لم يحدث ذلك، فالرجال لا يتميزون فقط بما يزيد عليهم من شعر. ولا بما طرأ من خشونة على أحبالهم الصوتية، دعنا من هذا كُله، لابد ستسألني عن سبب مجيني، ودائما أفكر في إجابات تُقنعك.

اسمع، لقد تركتُ العيد هناك وجئت أحتفل معك، آخر عيد مر علينا معا، صلينا في المسجد الكبير، خطفت من الرجل الملتحي الميكروفون وأخذت تصيح:

"هزم الأحزاب وحده..ولا تعبدوا إلا إياه...مخلصين له الدين..".

"يعني إيه هزم الأحزاب وحده؟".

سألتني في هوجة الخروج من المسجد، وتوهتك في إجابات وهمية، لم أكن أعرف إجابة محددة عن سؤالك المباغت، بالفعل، كلمة "وحده" أقل بكثير من قدرات الله اللانهائية، كنت لمّاحًا.

" حتموت ناقص عمر".

قال لك جدك أكثر من مرة.. مات هو وبقيتَ بعده سنتين وبضعة أشهر.

بعد سبع سنوات، وكأنني استيقظت فجأة، لم أجدك بجواري يا يوسف. لم أمانع، ربما لأنه لا يمكنني الممانعة. وكما كنت دائما ضعيفاً في مواجهة ما لا أستطيع رده، جبانًا، لا أعترض، فقط أناجيك من مكاني الذي تشبعت بكل ما فيه، ترابه وحصاه، حنفيته الوحيدة الصدئة، بواباته الكثيرة الخضراء، أشجاره متهدّلة الأغصان، أوراقه الجافة التي تفرش الأرض، والمقرئون متروون في الأركان، يتلون ما تيسر وهم جالسون بين النمل الكبير والقطط الصغيرة، "البلغة" سلاحهم الوحيد، يسحقون بها النمل أو يهشون القطط، تشبعتْ عيني بكل ما في المكان، زواره ومريديه، الشواهد القليلة المطلية بلون أخضر قديم، الأقبية المنبسطة النائمة في سكون دائم.

في الزيارة الأولى، تسللت إليك بالنهار، كان جسدك لايزال دافئا، حضرتْ أمامي بسرعة ملامح الممثل المشهور الذي فتحوا عليه البوابة الحديدية بعد أيام من تلقي العزاء فيه، وجدوه عاريا ومقرفصا خلف الباب، يضع رأسه بين ركبتيه، محاولة بائسة لشخص استيقظ من إغماءة، فوجد بجواره بقايا جثث متخمرة طبختها الأرض. وفيما ينتظر أن يمد له خادمه يده بكوب من

الحليب الدافئ، أو بشطيرة فطير مطلية بالعسل. وجد بجواره أطرافا مستسلمة للتراب وجذوعا مبقورة وجماجم سوداء ترقد في صحبة طفيليات الأرض.

أراك الآن، وأنت خارج من بين أكوام التراب، تقفز من على غصن شجرة الكافور الطويلة، تدخل في عبّي، تتسحب أصابعكِ، تبحث عن قلم في جيب قميصي لتعبث به، أو فلوس تطلبها وأنت تبتسم ابتسامتك المشهورة، أو يعود بك الزمن سنوات قليلة، فتمتطي كتفي وتمسك بيديك الصغيرتين أذنيّ الكبيرتين لتتوازن على مقعدك العالي، تستنشق الهواء مبتسما، وأنت تنظر إلى السماء.

عندما قرر الشيخ "أحمد مجاور" أنك من الآن فصاعدا ستذهب وحدك في رحلة خلوية طويلة، اعترضتْ أمك على أن يأخذوك منها، ولها أسبابها المنطقية، قدماك كاملتان، يدك التي احتضنتها طويلا لاتزال تحتفظ بزغبها الهش الخفيف، أصابعك كاملة بخمس مرايات صغيرة، شعرك كما هو أصفر ومصفف. عيناك مغمضتان بعض الشيء، ليست هذه بمشكلة، فكم من ليالٍ أغمضتها أطول كثيرا من ذلك، جسدك دافئا، ولا يزال قادرا على إفراز رقائق طازجة من الأحاسيس.

"عايزين ياخدوك من حضني ليه؟"

حاولتُ منعها من الكلام، فشلتُ. وظلتْ تقاوم:

"دى الوقت بس صحيتوا؟ سيبوني معاه وناموا زي ما كنتم".

لم يستمع إليها أحد.

"يمهل ولا يهمل. ربنا مابيفوتش. الله يرحمه بقى جدك. ويسامحه".

قال الشيخ أحمد مجاور، ثم انصرف.

دخلتْ أمك بعد قليل تسحب شنطة تنتهي بيد رَجُل، ويده الأخرى أسيرة في يد أمك القوية، دفعته للداخل كمذنب يرميه حارس في زنزانة، جلس على سريرك، جس يدك، وضع سماعته الفضية على صدرك، أخذ يستمع، مرت الثواني ثقيلة كأنها سنوات، بسرعة قام، كان حريصا على عدم اصطدامه بعينيّ أمك، لملم متعلقاته ووقف صامتا، كان صمته أبلغ من أي رد. نظرتْ إلينا أمك كما لو كنا جميعا نُدبر لها مؤامرة.

أطياف، أراك فيها وأراها فيك، يمر حيزك أمامي كلما رأيت شنطتك التي كانت الكُتب منها تتساقط، رضيتْ عنك أمك وأصلحتْها، ثم أصلح الرجل شبشبها فوق البيعة. بعد أن جئت إلى هنا بعدة أيام كبّرت صورة لك وأنت لم تكمل العام بعد. كنت ترتدي الكافولة وتمرش كما العادة بين فخذيك، وتضحك، نت تضحك. نسختُ صورة أخرى بحجمك الطبيعي، تعودتْ أن تقترب منك لتطمئن وهي تريحك كل ليلة على

السرير، تتأمل رأسك على الوسادة الصغيرة، شعرك الأصفر، نظرتك اللامعة، ثغرك المبتسم، تحاول في كل مرة أن تنحّيك عن وضع يدك بين فخذيك وتفشل، تقبّلك في فمك المفتوح، بين أسنانك المفلوجة، تشب كي تطوّل عنقك فوق سريرك السفري الصغير.

لفترة طويلة ظلت أمك تحتفظ باللُّعب وبالكوَر، بالخربشات وبالصور، تحتفظ بشريط فيديو شاهدت فيه مقطعا عشرات المرات،عروس لا أتذكر اسمها، لمجرد أنك تمر بجوار قدميها أصبح لها أهمية، تسير كالبرق، تحمل حمصك الشامي كثير الشطة، تمر بجوار رجل يضع على رأسه شالا أبيض طويلا، أطاح بك من على المسرح وهو يرقص، قفزتَ مرة أخرى في خفة فراشة، لماذا ستصبح نادرا؟ لماذا لم تتمهل وأنت تسير أمام مصور الفيديو، بدلا من المعازيم، بدلا من العروس نفسها، لماذا لم يركز الرجل الذي يحمل الكاميرا على وجهك بدلا من تركيزه على أشخاص ليس لهم أهمية؟

في تلك الليلة، وبعد أن انتهى الفرح، سحبَت شريط "جددت حبك ليه"أخرجت أحشاءه، ربطت فيها دبّورا وأخذت تجوب الشوارع طائرا، تغني بدلا من أم كلثوم، تقلد الباعة السرّيحة وأنت تلتفت للخلف لتتابع لأى ارتفاع وصل الدبور.

تعود بعد رحلتك السريعة، تكتشف أنك لابد ستُضرب، تتلعثم وأنت تبحث عن كذبة، أحن الآن لتلعثمك ووقوف الكلمات على طرف لسانك، لنبرة صوتك، أما الآن، لابد قد غلظت أحبالك الصوتية وظهرت عليها أعراض الرجولة. كانت جدتك تشبّهك بمرشدى "طالع له يا وله. أهو راخر محدش كان بيفهم منه كلمتين على بعض"ترى جدتك أنك امتداد لهذا الرجل الذى لا أعرفه، لكنني رسمت شخصيته من خلال حكاياتها عنه، أصبح مرشدى الذي في ذهنى مختلفا عن سيدي مرشدي بطل قصصها، لكنه متطابق إلى حد كبير مع ذلك الشبح الذي يخرج من بطن الحكايات.

عندما كان عمرك لا يزيد على سبعة أيام، جاءت جدتك تحمل ثلاث شمعات ملفوفة في ورق جرائد، ومعها كيس ملح كبير، طلبتْ من أمك صينية كبيرة وأخرى أصغر قليلا، وضعتْ في الكبيرة ماء ووضعتْ فيها الصينية الصغيرة، فأخذت تسبح وترتطم بأركانها، رمت ملحا كثيرا في الصينية الصغيرة العائمة، رشقت الشمعات الثلاث في الملح على شكل مثلث، كل شمعة ألصق بأسفلها اسم، الأولى مرشدي والثانية إبراهيم والثالثة يوسف، مرشدي، تقول جدتك إنه كان رجلا صالحا، فشيدوا له مقاما وأصبح زواره كل يوم بالمئات، وكان إبراهيم جدها لأبيها وكانت تحبه كثيرا، أما يوسف فكان قاضيا - كما تقول - وهو جدها لأمها.

سهرنا ليلة طويلة أمام الأسماء الثلاثة، تخشى جدتك أن ننام جميعا فتسيح الأسماء مع الشموع ويستعصي علينا أن نختار لك اسما، سهرنا حتى بعد الفجر بقليل، ذابت شمعتا مرشدي وإبراهيم وبقيت شمعة وحيدة تحمل اسمك، غضبتْ جدتك ولم يكن بإمكاني تخمين تزويرها للشموع، كنتُ نصف مستيقظ بجوارها أغالب النوم، فتحت عيني على يدها وهي تسحب ملصق شمعة مرشدي قبل أن تفنىَ، وعندما رأتني رمتها في صحراء الملح، ثم بللت يدها من البحر وقالت وهي تفرك عينها:

"الخيرة فيما اختاره الله. يوسف مش بطّال".

أقربهم إلى قلبي كان اسمك، لم أقل لها إن يوسف لو انتهى في الملح الكثير أو سقط في البحيرة فسوف أنتشله، لن أرضى عنك بديلا. كانت شمعتك الأقصر بين المثلث، لكنك صمدت حتى النهاية، لم تتزعزع، حفرت لنفسك مكانا بين الماء والملح، قضيت على خصومك وأنت ابن سبعة أيام. كان رأي جدتك منطقيا برغم اعتراضي، ستُكتب في سجلات الدولة دائما في ذيل الصفحة، وفي الفصل سيكون ترتيب جلوسك الأخير.

كل أركان غرفتك مطليّة باللون الموف، تكاثر، دَهَنتْ أمك الشقة كلها بذلك اللون الغريب، انتقدتْه خالتك:

"موضة قديمة".

قال-،، فلم تهتم أمك برأيها، ملاءات السرير أيضا بنفس اللون الخشب، الستائر، السجاد، الزهور التي تُزيّن النيش، اشترت أمك كتابا عن الألوان وأخذت تشرح لي فوائد اللون الموف الذي أصبحنا نتنفسه.

"لون مهدئ للحركة، لون ملَكي كان يستخدم في بلاط الإمبراطوريات والممالك القديمة، متصل بالإحساس، الثراء، المال واليسر، سحري ويفسر بشكل روحاني".

أخفت أمك حقائق أخرى، لم أعرفها إلا عندما قرأت الكتاب من دون علمها..

"لون الحداد، محبط وكابح للشعور، يوحي بالحزن والخيال الثري، رقيق وصادم. ولذلك تتغير الأحاسيس التي يحدثُها بين لحظة وأخرى".

قالت إنك عندما تعود ستجد – على الطريقة الفرعونية – كل شيء موجودا، تلبسه فور حضورك، فترتد الأمور إلى سابق عهدها، تتأمل كل صباح حصانك الخشبي، ودراجتك التي حطمتها شقاوتك، وإكسليفونك، والبلي الزجاجي الملون، تجلس صامتة تنتظر ما سيجود به الخيال، فتقفز أمامها محطما كل الأساطير الطينية من أجل العودة الظافرة.

عندما تعود، هل ستعود على نفس هيئتك؟ الملامح تتغير، كانت صورتي وأنا في مثل سنك مختلفة تماما عن صورتي عند عمل البطاقة، كان شعري مثلك أصفر، ملامحي صغيرة، وصوتي رقيق. عند استخراج البطاقة قالت لي جدتك:

"صوتك بقىَ خشنّ وبقيت تحط مناخيرك في كل حاجة".

وصفتني أنني أمشي كالجمال، وآكل كالقوارض. أما الآن، فقد أصبحت بلا شعر أصلا. كم تغيرت أنا، تغيرت كثيرا، فهل تغيرت أنت أيضا هُنا؟.

منذ سنوات طلب جدك فلوسا لتوسيع المقابر، قال إنهم سيبطّنون العيون الجديدة من الداخل بالأسمنت ومن الخارج سيطلونها بالدهان، سيشذبون الشجر ويمدون ماسورة مياه كبيرة بثلاث حنفيات. لم أهتم بتلك المسائل من قبل، دائما كان يقول، ودائما كنت أتجاهله. قال إن الحشرات والقوارض تملأ المقابر، هل يزعجك هيش الأشجار، هل تضايقك الحشرات، من أين تدخل إليك، تزحف من تحت الجدران، كيف تتآلف معها، ماذا ستفعل لو دخل عليك فأر كبير يجر خلفه سربا من الجرذان الصغيرة؟.

بعدما جئنا بك إلى هنا بسبعة أشهر شعرتْ أمك بمغص، طلبتْ أكلات كثيرة وغريبة في وقت واحد.

"لو رُزقنا بولد، حسمّيه يوسف".

قلتُ لها.

"عمرَك شفتْ قبل كده ولدين بنفس الاسم في أسرة واحدة؟".

قالت وهي تنفض الغبار عن صورتك الكبيرة النائمة بجوارها. أخذتْ تتحسس بأناملها زغب وجهك الناعم وتُقبلك فى فمك، وتبتسم.

أريدك ولا أدري كيف أحصل عليك مرة أخرى، هل سأعثر عليك في السماء، هل سأقابلك بعد أن تدخل مرحلة تطوّر جديدة؟ لا أرغب في ذلك بالطبع، أريد أن أراك وأنا أحمل لك مشاعري هذه، لا يهمّني كل ما سيُقال، إننا سنجوب الحدائق سويا ونحن نغني، ربما لا أعرفك وقتها، ربما لا تعرفني، ربما تمر علينا سنوات طويلة، نطوف بين المجرات والكواكب ونحن أجزاء تتداعى وسط أشياء مُصمتة، جامدة.

أنا ..

أريد أن أبني جسرا من الثقة بيني وبينك، سأصارحك بالحقيقة، أنت لم تعد صغيرا، أنا.. أكذب عليك، نعم أكذب عليك. لقد ماتت أمك، ماتت وهي تحاول أن تُخرج للحياة نسخة أخرى شبيهة بك، ضغطت بقسوة على رحمها، أخذ ينقبض وينبسط حتى تلف، فغابت عن الوعي للأبد.

هل يغنني التذكر عن صوتك الرائع، أو عن ضحكتك التي تُظهر أسنانك الكبيرة، هل سيعوضني الحكي عن أذنك المغرفية الصغيرة، عن سؤالك الدائم عن معنى لفظ الله، عن ابتسامتك وأنت تطلب فلوسا للآيس كريم، أو ابتسامتي وأنا أعرف أنك وقفت نفس الوقفة وصنعت على ملامحك نفس الابتسامة اللامعة لأمك، كي تعطيك هي الأخرى فلوسا للآيس كريم.

الناس لا يصدقونني، لو قلت لهم إن السنوات السبع أطول من كل عمري، سأُتهم بأنني شاعريّ وخيالي، وإذا ما تركتك وسحقتني دوامة الحياة سأُتهم بأنني واقعي وجحود، من الأفضل ألا أعتقد شيئا حتى لا أصبح أيًا من هؤلاء.

خروج

لم يشهد أحد من جيران الأستاذ مرشدي، الموظف حتى هذا اليوم في أرشيف دار الكتب والوثائق القومية، بأنه أخذ إجازة شهرا كاملا ليذهب إلى قريته من أجل يوسف. لم ترد معلومات بشكل كافٍ عن زياراته المتكررة للمقابر، فتارة يقولون إنه يذهب ليوسفَ، وتارة يقول هو إنه يتابع التنقيب عن مخطوطات منسية منذ قرون خلف المقابر، برديات وجلود حيوانية وقطع من "الشقف" كتب عليها عمرو بن العاص رسائل لأمير المؤمنين، ويقول آخرون ماله هو والشقف والجلود، فهو لا يخرج عن كونه موظف في أرشيف مسؤوليّته فهرسة الأوراق، أغلب الظن إنه يهرب من ملاحقة وباء مُهلك يجتاح مدينته،ولكنّه يتحجج بيوسف.

الأخبار المعادة فى الجرائد والتلفزيون عن مرض معد كانت مبالغ فيها، وكعادة البرامج المسائيّة في مثل هذه الظروف، تنفخ في النار، تجعل عود الكبريت مستود ع وقود، وتعمل من العطسة

زلزال. في هذه الأثناء أصبح الحديث عن الموت أكثر شهرة وطنينا من الحديث عن أي شيء آخر. وبرغم تذكر الناس للحسنات والسيئات والإسهاب في ذكر الدار الآخرة. فإنهم كانوا حريصين على الوقاية بشتى الطرق، حتى إن بعض السيدات البدينات اللاتي لم يعرفن قبل ذلك سوى الحديث عن المسلسلات المسائية وجلسات خلط أنساب الحكايات وترقيع الذكريات، أصبحن الآن يضعن الكمامات على وجوههن، ويلبسن القفازات الطبية خوفا من تكملة الليلة في مكان آخر.

في هذه الأجواء سافر الأستاذ مرشدي.

كان أكثر الناس إيمانا يتوضأ في منزله ويصلي جماعة بأهل بيته فقط، فربما كانت حُصر المسجد حاملة للوباء، أو قباقيب الوضوء ملوثة بالميكروب. وعلى الرغم مما ينتظر المؤمنين من جنات ونعيم إلا أنهم كانوا من أكثر الناس حرصا على تواجدهم في هذه الحياة التي يعلمون عنها كل شيء. أغلق البقّالون محلاتهم، وأصبحت الشوارع شبه خالية، فقط بعض صِبية يلعبون بعد أن فروا من رقابة ذويهم بأعجوبة.

كان الميكروفون يصرخ "هزم الأحزاب وحده" كان المسجد خاليا إلا من نفر قليل. شيخ عجوز يتهدج صوته، لا أحد يدري أمن تقدم السن أم من خوف أم تملّكه الخشوع؟ لا يكتمل صف واحد من خلفه، بضعة رجال يفركون، يحمل أحدهم كيسا به

حلوى للأطفال، يذهب بكيسه بعد الصلاة، فلا أطفال اليوم، أصبحت المدينة تشبه الأطلال، بيوت لا يظهر عليها ضجيج الحياة، فر السكّان إلى مساكنهم كفئران سكنت جحورها، الشيء الوحيد الذي ياع ه. الجرائد، لكنها لا تقدم ما يغني عن السؤال، لم يستطع البشر في مثل هذه الحالات تقديم إجابات لبشر آخرين، الجميع ينتظر عطف السماء.

"لا أحد ينام بدون عشاء".

مثل هذه المقولات أصبحت مستفزة، فجوع الجار أو حتى موته لم يعد يقدم أو يؤخر.

سارت الحياة على هذه الوتيرة حتى جاء يوم خرج فيه الأستاذ مرشدي فجرا ولم يعد إلا بعد سبعة أيام، عاد شخص آخر تماما، لا يرد تحية على أحد، لا يتحدث مع أحد، يدفع ثمن المشتروات للبقال أو الجزار، ويأخذ الباقي وينصرف، يسير لحاله، لا يعلق على الأحداث، غير عابئ بشيء، أصبح شعره أبيض وناعما، لا يمكننا وصفه بالكئيب، فهو يضحك أحيانا، لا، ليس بالضبط، هو يبتسم ابتسامة واسعة تعبر عن مزاج اللحظة. ينفرج فكّيه لتظهر أسنانه الكبيرة المفلوجة، شعره المسترسل يخفي أذنيه المغرفيتان.

تنمو الحكايات كما الكائن الحي، ولذلك لا أحد يعرف على وجه الدقة كم من التوقعات أُلصقت بالرجل، وكم من

التخمينات سقطتْ عنه. لكن دعونا من التخمين، فمن يدع نفسه للتكهنات لن يقدم ولن يؤخر.

في هذه الأجواء ندرت الصحبة، في الشارع يسبق الزوج زوجته بمسافة كبيرة، لا يحمل أبناءه، لا يمتطي أحدهم كتفيه، ولا يمسك بأذنيه ليتوازن على مقعده العالي ناظرا إلى السماء. حتى المكفوفون لا يجدون من يأخذ بأيديهم لعبور الطريق، ربما لو سقط أحدهم في نهر، لن يجد شهما يخلع ملابسه ويقفز لينقذه، سيكون مصيره جثة طافية ومنتفخة، تعطي ظهرها للشمس، فيما ملامحها محملقة في القاع.

جدك

بعد حذف قشرة الحضارة وبعض رتوش أخرى، نعاود المرور على الزمن بنفس الأحداث ونفس القَدَر، وربما بالهيئة ذاتها، وكأنه شخص عجوز قابع في طريق طويل، نمر عليه من جديد كلما أراد أن يجدد بشرته.

أتساءل بعد أن دخلتُ عتبة الأربعين:

هل كشفتْ لنا الأحداث عن دفاترها من قبل، أبكتنا ظروف شبيهة قبل أن تتخلق أجهزتنا الدمعية، هل انتقمت منا بنفس الطريقة ونفس الأدوات؟ عاودتْ الأحداث المرور، فكأن كل ما أصبح مطلوبا مني الآن أن أمد فقط قدمي حتى أسقط في ذلك الصباح البعيد..

رأيت خروف متورم البطن ومنتفخ الأجناب، يقف بالقرب من البيت، يأكل البرسيم بطمأنينة، لا يهتم بالطبع بأنه بعد دقائق سيصبح أجزاء متناثرة في بطون الضيوف. ربطه جدك بحبل كتان

في البوابة الحديدية المقابلة، سمعت جلبة ورأيت أشخاص كثر، قدمهم جدك لي على نحو رتيب وممل:

"عمك فلان.. ابن عمك.. خالتك، ابنة عم أمك، جوز بنت خالك".

قدم لي يومها أشخاصا لم أتوقّف عندهم، نسيتهم فور أن أفرغ التعريف من جوفه. كنتُ أستفز جدك دون قصد، لم أتخيل أن أُؤسس شجرة للعائلة، أغلب الكبار فعلوها، لكنهم فشلوا بجدارة، سيتوه فرع ما من الفروع، لابد سينسى المؤرخ اسما لن يضاف، اسم واحد يمكنه أن يجعل العائلة وضيعة أو مرموقة.

انتهى التعارف على خير في هذه الليلة، هي تُقال هكذا "عامل ليلة" يجتمع الأقارب والأحباء على حدث ما، يأكلون ويشربون وينبسطون آخر انبساط. أما عن المناسبة فكانت الاحتفاء بعمك "راغب".

فبعد أن لفظني رحم جدتك، أبىَ أن يفعلها ثانية. داخت عند الأولياء، ثم الأطباء. تركت بعد ذلك الأمر ونصيبه، بعد خمسة عشر عاما اشتعلت الخصوبة ونفخت بطن جدتك للمرة الثانية، وكان عمك راغب.. المسافة العمرية بيننا تجعل راغب يصلح أن يكون ابني أكثر مما يصلح أن يكون أخي، فجدك قد تخطى الخمسين، وهذه سن لا يعز فيها الإنجاب إلا من الزوجة الأولى فقط، رأى جدك أن "يعمل ليلة".

معلوماته عن مثل هذه الليالي كانت سماعي، اعتمد على مثل معروف "اللي يسأل ما يتوهش". أول ما سأل، سأل على نمرة تليفون الشيخ "عبدالباسط عبدالصمد"، ثم بعض الدراويش الذين لا ينصلح مزاجهم إلا في حلقات الذكر، لا ينتشي ضيوف مثل هذه المناسبات إلا برؤية الدراويش وهم يتمايلون في اندماج بالجلابيب البيضاء والدفوف. دعا جدك الأقارب الذين يزورونه باستمرار، وأيضا الذين لم يرهم منذ زمن بعيد.

من أكثر المشاوير مشقة في الأمر هو شراء أضحية لهذه المناسبة، وكما تعود جدك، أخذ الخبرة سماعيا. ذهبت معه حيث كانت الوصفة، تجار كثيرون يحتلون ميدان باب الشعرية، أولى النصائح التي لقنها له العارفون ببواطن الأمور هي الإصرار على الفصال في السعر.

"هات آخرهم لغاية ما تحس انهم قربوا يسبولك الدين".

في الصباح، لبس جدك جلباب كشمير لم يلبسه منذ سنوات، كان يدخره لمثل هذه المناسبات، ولبس أيضا عمامة بيضاء، لفها حول محيط رأسه بطريقة مرتجلة، وضرب في جيب صدريته محفظة كبيرة بعد أن دس فيها المبلغ المطلوب. تقمّص يومها روحا أخرى غريبة عليه، قبل أن نصل للسوق تلبّسته روح تاجر، يتحدث بلغتهم، كما لو أنه مولود مع الغنّامين وتجار المواشي. دخل إلى السوق بهمة، أخذت عيناه تتجولان بين أكثر النعاج

نظافة وأرساها وقفة، وأثقلها وزنا، توقف عند إحداها، أخذ يطبّل على جنبها ببطن كفه كما لو كان يعاين بطيخة، انتهى من المعاينة ثم همّ واقفا، وقبل أن يبحث عن صاحبها كان خمسة رجال قد قوضوه بسياج بشري مُحكم:

"أؤمر يا با الحاج".

"من غير فلوس".

"نوصّلها لك لغاية البيت".

إلى آخر هذه الكلمات التي كانت تلفظها ألسنتهم دون المرور على وسائط أخرى.

"طيب.. شكرا".

يقول جدك وهو يتخيل أن الخروج من سياجهم المحكم سيكون بسيطا مثل الدخول فيه، طوقوه بربطة المعلم. لم يعطوه فرصة للكلام، تأملهم وهو يفكر في حيلة للهرب "اللي يجيلك غصب خده طوع" قال لنفسه ثم نظر إليهم بثقة مصطنعة، وكأنه سيشرها بمزاجه، فاصَل كما هي الوصية، أوصل ما قالوه للنصف، احمرّ وجهي خجلا، ظننت يومها أن الرجل سيسب لي ولجدك ويقذفنا بـ"المشّاطة" الحديدية التي يساوي بها صوف قطيعه. اندفع الرجل في اتجاهنا يسبقه صوته الجهوري المحشرج، بَدأ من:

"وحياة من جمّعنا من غير ميعاد".

حتي وصل لـــــ:

"عليّ الحرام من ديني.. وعليّ الطلاق من بيتي".

مرورا بـــــ:

"أسمع منك كلمة غيرها.. عشان استفتاحية.. والله ما يساوي.. حق النقل.. حستنا مجروحة.. ثمن العلف.. الكلاّف".

يوافق جدك على الزيادة، يتململ ويريد أن ينصرف. لم يفلح معهم تشبهه المزيف بهم، ربما فقسوه من أول نظرة. من أول كلمة، كانوا أشبه بعصابة، سحب أحدهم السكاكين والمَسَن ووقف في منتصف الدائرة، تنفس جدك بارتياح عندما قال الرجل حامل الأسلحة:

"والجزار كمان جاهز".

يفكر جدك في الأمر، يريد الخروج من هذا الموقف بأقل خسائر، سيشتري منه أو من غيره، فلماذا لا يكون منه والسلام حتى تنتهي المسألة؟ تجول ببطء بين القطيع، أصبح الوقت مناسبا ليعلن التاجر عن بضاعته، مد الغنّام الكبير يده فقبض على رقبة الخروف، رفعه لأعلى حتى أصبح كالواقف، أخذ يطبل على بطنه بقسوة، مد صبي صغير يده بالمشاطة الكبيرة، سحبها على ظهر الخروف مرات حتى أصبح صوفه ناعما وهشًا، تجمّل منظره

فأخرج جدك من جيب محفظته الكبيرة الثمن المطلوب وأعطاه للتاجر، قبض الرجل على الفلوس أولاً، ثم قال:

" والله ما ينفعوا أبدا" .

زوّدهم جدك قليلا، زيادة في زيادة حتى اقترب الثمن مما قالوه في أول التفاوض. اقترب صبي كنت أراه صغيرا، رفع الخروف على قفاه ماسكا أقدامه الأربعة بخبرة، ثم سار أمامنا. مد شخص آخر يده للحلاوة، فهو من أكّله وشرّبه ومشّطه، واعتنى به منذ مولده وحتى اليوم. أخرج جدك من جيب خارجي صغير في صديريته ورقة مالية، لمح الرجل لونها فعرف فئتها عن بُعد، اعترض قبل أن يمد يده ويأخذها، زوّدها جدك وانصرف ينفخ وهو غاضب.

أوقفنا تاكسيا متهالكا ومنكفئا الى الأمام بشكل ملحوظ. اشترط السائق أجرة مضاعفة، فالخروف سيقلب رائحة سيارته. وافق جدك بدون تفكير. وضع الصبي الصغير الحيوان المستكين في شنطة التاكسي ووقف صامتا مؤدبا، أخرج جدك ورقة نقدية ودسها في كفه، فور أن نظر إليها رماها على سقف التاكسي:

"عايزين زيّها كمان".

وقبل أن يرد جدك، قال الصبي:

"كل اللي قالولك عليه ده أنا اللي باعمله لوحدي".

فرد جدك بغيظ:

"وانا مالي يا ابني".

مد الصبي يده ليسحب الخروف الذي تكوّم بجوار فردة كاوتش قديمة، وبينما الفصال على أشده بين جدك والصبي الواقف بثقة يطلب حقا مكتسبا، مد سائق التاكسي يده من الشباك وهو يُشيح ويهدد بإلغاء صفقة التوصيلة.

وصلنا يومها مُنهكين ومغبّرين، نام جدك ما تبقى من اليوم. وضع الخروف في الحمَّام، أوصى الجزار بضرورة تعرضه للشمس قبل الذبح بيومين على الأقل، ذلك سيجعل لحمه أطيب، ربطه جدك بعد النصيحة في بوابة حديدية مقابلة للبيت، نتناوب عليه الورديات أنا وهو، وطفل لا نعرفه ولكن نعرف أباه. كان الولد يشاركه أكل البرسيم.

انتظر الخروف على هذا الوضع حتى جاء يومه. أرسلني جدك لأستقبل الشيخ "عبدالباسط" لم أكن أصدق أنني سأرى شخصا كنت أراه فقط في التليفزيون، بدأت المقارنات تتوالى، تشكّلت في خيالي وأنا ذاهب لاستقباله، هل سيكون بكرش، هل صورةُ في التليفزيون هي مجرد صوّر قديمة، ومن سأقابله لن يخرج عن كونه شيخا كُهنة لا يدري ما يقول؟ نزل الرجل من سيارته "البيجو استيشن" البيضاء، بجبته وقفطانه، بحذائه اللميع وعمامته

البيضاء التي يتوسطها طربوش أحمر قصير، رأسه كقبو مئذنة ينقصها هلالٌ، تأملني -أو بدا لي ذلك- وهو يلبس نظارة شمسية كبيرة قاتمة، تماما كما أراه في التليفزيون، بدا قريبا من مرحلة الشباب، وكأن الزمن لا يمر عليه، هل يبدو المتقون أصغر سنا؟ أفسح سائقه الهواء بذراعه وهو يفتح له الباب ويأخذ بيده، يتحسس الشيخ خطواته ببطء. لم أُعر مثل هذه الملاحظات الصغيرة اهتماما، كنت أشعر فقط بزهو وأنا أخطو في موكب يسير فيه رجل مثل هذا، جلس على كرسي كبير جاء مع كراسي الفراشة خصيصا من أجله، كان الميكروفون في حجم باذنجانة رومي، ضخم ومعدني، به فتحات مستطيلة لتمرير الصوت، الاحتفال يعج بأطفال شكّلوا هرجا خارجا عن السيطرة، كانوا يخطفون الميكروفون من أمام الشيخ، يقولون: "ألو ألو" ثم تنشق الأرض وتبتلعهم.

جاء الدراويش، يلبسون زي أبيض، كقطعة سحاب سقطت من السماء، أو أدخنة كثيفة فُتحت لها البوابات فجأة، جلسوا في سكون، نظروا لبعضهم البعض وهم يرفعون دفوفهم في الهواء كبطاقة تعارف. سحبني جدك من يدي وهو يسألني عن الطعام، لم يأت الجزار حتى الآن، ذهبت للطهاة مرتين والخروف يُذبح بعد، هل سيطهونه وهو واقف يمضغ البرسيم ويتابع الوالدين؟ انشغل جدك في الترحيب بالشيخ عبدالباسط، اختار له الكرسي

الأكبر في المجلس كله، لم أكن أعرف شيئا عن أدبيات الترحيب بمثل هذه الشخصيات العامة.

سألت نفسي:

"كيف ستسير الليلة؟"..

هل سيُسخن ببعض التلاوات القصيرة ليليّن صوته، أم سينتظر الفتّة أولاً؟ أكثر من نصف الحاضرين جاءوا لرؤيته، سيشاهدون الشيخ عبدالباسط عبدالصمد للمرة الأولى وجها لوجه، بالحجم الطبيعي، سيتأملونه وهو يستلهم أنغامه الساحرة من سُحب السماء. جلس الشيخ وأخذ يتلفت حوله بزهو، كان يلبس نظارة سوداء تشبه إلى حد كبير نظارات المكفوفين، لابد لتحجب عنه ضوء الكلوبات وعناقيد النور، جلس بالقرب منه رجل نحيف، وأمامه نصف حائط معدني به عشرات الأزرار لضبط الصوت. وشَّ الميكروفون أكثر من مرة، ثم استقرت الموجة رائقة تنتظر أن يشدو الشيخ الجليل ببعض من آيات الذكر الحكيم. وضع كفه على أذنه، سحرهم بهذه الحركة المشهورة التي يرونه يفعلها دائمًا في التليفزيون.

"بسم الله الرحمن الرحيم".

سرَت نشوة في الحاضرين الذين صمتوا فجأة، ليفسحوا المجال بالكامل للشيخ النجم، لو رمى أحدٌ الآن دبوس إبرة سيسمع صوته.

والضحي والليل..

الإنسان..

العاديات..

بدأ بقصار السور، هكذا هي عادة الكبار، يدربون أحبالهم الصوتية في تلاوات قصيرة، حتى يتمكنوا من الاندماج، تتجول بعد ذلك الملائكة في الأجواء وتسكر الناس بدون خمر، يغمض الشيخ عينيه منتظرا أن يفتحهما بعد قليل فترشده السماء على ما يجب عليه قوله.

جاء الجزار، وقبل أن يبدأ في طقوس الذبح بقليل، سألني:

"أبوك خد جزار معاه وهوه بيشتري الخروف ده؟".

"خدني أنا بس".

أجبته وأنا أنظر في عينيّ الخروف المسالم الذي يمضغ البرسيم ببطء.

"الخروف ده واكل طن ملح وشارب البحر كُلّه!".

قال وهو يلوي عنقها ويبرك فوقها بكل ما فيه من عزم.

تذكرت التجار واستنزافهم بخبرة لأموال جدك، لم يكن هناك وقت كاف للتأمل في مسألة خداعنا، بعد أقل من نصف ساعة كان الخروف يرقد قطعا في حلل الطهاة، ركن الجزار رأسه بجوار

بوابة البيت الحديدية وفي فمه المُعْوَج عودان برسيم مخلوطان بالدم والمخاط، دارت رحا الذبح والسلخ والتقطيع في ركن بعيد عن مجلس الشيخ عبدالباسط. كنت أتابع الطهاة قليلا ثم أعود وأجلس مرة أخرى في مجاس الكبار، أنتشي وأنا محشور بين لابسي الزي الأبيض وحاملي الدفوف الكبيرة، توغل الشيخ عبدالباسط حتى خرجت كنوزه واحدا تلو الآخر،انتفخت عروق رقبته، هُيئ لي بأنها ستنفجر، كان أمامه كوب ينسون، يسحب منه رشفة ثم يكمل ما بدأه، ازداد الوافدون حتى ضاق بهم المكان، اخترت جلستي هذه المرة بجوار الشيخ النجم، فترة استراحة تخللت الليلة، ضحك خلالها الشيخ كما يضحك الناس، قال نُكتا وسرد حكايات كثيرة على مسامع الحاضرين، دارت أغلب حكاياته في فلك المعجزات الإلهية وحكمة الله في اللطف بعباده وبعض كرامات أناس صالحين، تحدث عن زياراته خلال فترة شبابه لمناطق في جنوب إفريقيا، شرح لنا كيف أقنع بشرا كثيرين أن يعتنقوا دين الإسلام، وكيف أنهم أطاعوه لما تيقنوا أنه هو الدين الحق، ردود الأفعال لم تخرج عن هزة الرأس يمينا وشمالا بعظة، اختص الشيخ عبدالباسط جدك بإحدى نوادره فمال على أذنه يحكي له:

كان في أحد سرادقات العزاء بمنطقة شعبية، أخذ يتلو، انتشى ونسى نفسه تماما، وكلّما ردد باندماج:

"يَا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ ".

كانت زوجة الفقيد تبكي بحرارة، كررها مرة أخرى فبكت بشكل أشد حرقة، سألها بعد أن انتهى من تلاوته:

"هوه انا ليه كل ما أقول يا يحيى تبكي يا ستي؟".

"يحيى اسم المرحوم. كل ما تقول يا يحيى أفتكره يا شيخ.. والنبي صوتك حلو أوي يا سيدنا. قول كمان. قول واشجيني".

أجابته وهي تضع يدها في عبّها وتُخرج ورقة سليوفان صغيرة، أعطت السيدة للشيخ عبدالباسط عبدالصمد "نفحة" بسيطة على حد تعبيره، قطعة أفيون أصلي تكفي "تعميرة" فقد كان زوجها صاحب مزاج. نظر جدك له نظرة حائرة، ثم تلاها بابتسامة لا معنى لها، بلع حكاية الشيخ التي يرويها للتندر والفكاهة وليس للتوقف أمامها وتأملها، ضحك كل من سمع، بمن فيهم الشيخ، لم أرفع عيني من على نجم الليلة، الشيخ عبدالباسط عبدالصمد، تأملتُ كل ما فيه بهدوء وإعجاب، شاربه الرفيع الذي يميزه، نظارته الكبيرة التي تعوق رؤية ملامحه مكتملة، نظرات الحاضرين أيضا، تقارن بين صورته في مناسبات التليفزيون أو عند بداية ونهاية الإرسال وبين رؤيته الآن كيانا أمام أعينهم.

سارت الليلة في الطريق الذي رسمه خيالي، أحاسيس متوهجة تميل للنشوة، بين تلاوات الشيخ وتمليلات الحاضرين، بين الاستراحات لعب الدراويش دورهم بمنتهى الإخلاص، كانوا يطوفون برؤوسهم وبين أيا بهم الدفوف البيضاء، أقدامهم ثابتة، تحفر مكانها بقوة في الأرض، أمّا خيالهم فسارح في الملكوت، يندمجون برغبة فيما يفعلون، أوصلتهم حركاتهم قرب نهاية الليلة لما يشبه الغيبوبة، تهتز عمائمهم على رؤوسهم، فلا يبالون، تقع، يدوسون عليها، فلا يشعرون، يختلط بموجاتهم بعض الأقارب والجيران، ينضمون للصف، منهم من يصل لنفس الحالة ومنهم من ينتظر، تلمع النواصي بحبات العرق، ينهمر مع الإصرار على بلوغ المقصد، أغلب الحاضرين تملكتهم نشوة تنفض أجسادهم وتغيّب عقولهم، أصبحوا كنسيج في ثوب واحد، يستمعون لأصوات ربما هم أنفسهم لا يعرفون لها مصدرا، غامت نظرات الدراويش، اختلط بياض العيون بسوادها، لا يرون شيئا، كل ما يحرصون عليه هو تماسك أقدامهم عند ذات النقطة، يحركون كفوف أرجلهم في اتجاه جذوعهم، والكعوب ثابتة، يتمايلون كموجة تائهة في بحر، لا تعرف على وجه الدقة أين ستهدأ وتستقر.

التقطوا أنفاسهم وجلسوا يستريحون، نظراتهم لا تزال تائهة، مشبّرة وهائمة، تغيرت النظرات قليلا عندما جاء وقت الطعام.

مُدت الموائد التي "شحتها" جدك من الجيران، مكان الشيخ عبدالباسط هو رأس المائدة، كان يأكل على استحياء، يتحسس قطع اللحم وكأنه أنثى تأكل أمام خطيبها، على عكس مساعده الذي كان يأكل بنهما مبالغ فيه، أما الدراويش فيأكلون وكأنهم في بيوتهم، أخذوا يمزحون بعد أن عادت أرواحهم من رحلتها القصيرة إلى ما فوق السحاب بمسافات لا يمكن قياسها، عادوا كما كانوا بشرا، يأكلون ويشربون ويضحكون، لا ينتظرون ملاعق ولا أطباق، يأكلون بأياديهم، فالنبي عربي والبساط أحمدي ولا داعي لمثل هذه التعقيدات.

هلل الحاضرون ونحى أغلبهم الملاعق جانبا، أخذوا يفعصون اللحم بأياديهم ويقذفون كُتل الفتة لأفواههم.

انبسط الجميع، لم يهتم أغلب الحضور بالسؤال عن سبب هذه المناسبة، وعمك راغب ابن الأيام السبعة ينام في فراشه لا يدري من أمر ما يدور حوله شيئا.

مع اقتراب الفجر هدأتْ الجموع وخفت الأقدام شيئا فشيئا، أعطى جدك للشيخ والدراويش ما فيه النصيب، انصرفوا وهم راضون، ركب الشيخ سيارته "البيجو استيشن" البيضاء بعد أن أخذ مساعده بيده، ودّعه جميع الحاضرين تقريبا، تحركت سيارته ببطء حتى اختفت، ابتلعتها نقطة التقاء السماء بالأرض على مدد الشوف، عدنا أنا وجدك لنكمل ما تبقّىَ من العلقة الكبيرة، نحاسب عمال الفراشة ونحصر ما زاد من مصاريف ونفكر في مكان عند الجيران نضع فيه ما فاض من طعام حتى لا يفسد.

عند دخولنا الشارع رأينا خيالاتنا طويلة، بطول الشارع كله. رأس الخروف المركون بجوار البوابة الحديدية كان أول ما قابلنا، سافر معظمها في بطون الضيوف، وتبقَّيَ منها فقط ذلك الرأس البائس، كنفحة، يمكن أن يصبح من نصيب "السيد العبيط" فهو يحب جميع أنواع الرؤوس، غنم، بقر، سمك.

كان جدك يسير بجواري وهو منشغلا بأشياء أخرى، يبدو أنها جميعا تتلخص في مسئوليته وهو في هذه السن عن مولود عمره سبعة أيام، فهو في الخمسين وعمك راغب يخطو ببطء ليبدأ يومه الثامن، عندما يصبح عمك طفلا في العاشرة سيخرج جدك على المعاش.

قطع منظر "تادرس" المخيف تفكيري، خرج من بين أكوام القمامة كشبح، تقترب ملامحه، والخرابة المظلمة تظهر كخلفية لصورته، أقبل يدب الأرض بقدمه الحديد وسيخه الدائري الذي يضعه على كتفه، اتكأ على جدار قديم ثم جلس على أقرب بسطة أمامه، تحولت تكشيرته المرعبة إلى ضحكة أكثر رعبا، لمعت عيناه على ضوء الكلوب الوحيد الذي لم يفصل عنه عامل الفراشة التيار بعد.

جلس جدك بجواره منهكا فجلست أنا الآخر، سأله تادرس عن الشيخ عبدالباسط، وقبل أن يحكي جدك له عن كراماته والإعجاب الذي حظى به من قِبل الحاضرين رد عليه تادرس:

"اللي كان هنا من شوية مش هوّ الشيخ عبدالباسط عبدالصمد، ده شبيهه".

وقبل أن يدافع جدك ويبدى رأيه أكمل تادرس:

"شبيهه، اسمع اللي بقولك عليه، وبالأمارة كفيف، بيقلد صوته بحرفنة، بيلبس هدومه وبيروح كل حتة والناس فاكراه الشيخ عبدالباسط، عشان بطاقته اللي بتسهّل له الحكاية، اسمه محمد محمد عبدالباسط، بس أصغر من الشيخ بيجي عشرين سنة، عشان كده مأجر ناس بيقدموه في كل المناسبات على انه هوّ بذات نفسه يبقى الشيخ عبدالباسط عبدالصمد".

لم ينتظر جدك حتى ينتهي تادرس من شرحه، كنا في أشد الحاجة لمن يشيد بما أنجزناه لا من يهيل عليه التراب، كان التعب قد هدنا بشكل يستحيل معه التركيز الكامل، مد تادرس يده بجريدة مطوية ومفعصة قائلا:

"دا مش كلامي. اقرا في الصفحة التانية. الشيخ عبدالباسط مات امبارح".

شدّ جدك الجريدة من يده، عندما وقعتْ عينه على الخبر صمت، أخذ يبحث عن الكلمات، لّما فشل في ردع تادرس انكمشت خيالاتنا وأصبحت تحت أقدامنا، أنهكني التعب وكادت مفاصلي تتفسخ، الدنيا كلها تهتز أمام عيني، تماوجت الإضاءة الخافتة للكلوب مع كلمات المخيف دائما، تادرس، ارتفعت

البسطة التي نجلس عليها قليلا، سقط الشارع كله في جُب بعيد، اختلطت ألوان البيوت وأصبحت كلها مزيجا بين الأبيض والبرتقالي، وقبل أن يتجول في بالي خاطر عن إمكانية حدوث فتنة كاسحة بسبب تدخل "ادرس المسيحي في شئون ليس له أن يتدخل فيها، كنت قد سبحت في متاهة بعيدة ولذيذة.

يوسف

في مرحلة متأخرة تُيم الأستاذ مرشدي باسم يوسف، في تلك المسألة له قصة يطول شرحها، سأحاول الاختصار قدر استطاعتي.

دب خلاف بينه وبين زوجته بخصوص مسألة التسمية، اختلفت آراء باقي أفراد العائلة، فقالت جدته:

"ممكن نسميه أمير ويطلع متشرد يشحت الرغيف والسيجارة، وممكن نسميه شحات ويطلع رئيس وزرا!" .

احتدت المناقشات بين جدة يوسف والأستاذ مرشدي حتى وصلت للذروة، وجدته كعادتها تدعي المعرفة في كل شيء، فقد تخطت السبعين بسنوات وتؤمن بالمثل القائل "أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة" . لو طبقنا هذا المثل بحذافيره لكانت أعلم من كل الموجودين بسنوات أبعد كثيرا من مهد الرسالات السماوية.

"حنتوكل على الله ونسميه يوسف" .

قال بعد أن بلغ المولود سبعة أيام بالتمام والكمال، منذ ذلك الحين والحسابات تختلط في مخيلة الأستاذ مرشدي الذي تغير كثيرا بعد ذلك اليوم، فمرة يقول يوسف غائب منذ سبعة أسابيع، ومرة يقول منذ سـ ـة أشهر، لا أحد يعرف إلى أي مدى وصلت معه المسألة، حسنا، هو يعرف أنهم سبعة أي شيء والسلام، فحفاظه على الرقم سبعة دليل على أن هناك جزءا في وعيه ما زال يعمل بدقة.

أما عن يوسف فغيّر الزمان والمكان، ينادونه هنا باسمه الحقيقي:

"يوسف" .

ليس ذلك مهما بشكل أساسي، فالأسماء ليست سوى فكرة للنداء أو لتسهيل التميز.

رأى يوسف أمه وهي راقدة في المستشفى الحكومي الكبير، ورأى أيضا يافطة كبيرة معلقة على بوابة المستشفى ومكتوب عليها كلمات أقرب للاعتراف "اسمي مرشدي. أو يوسف. لا يهم ذلك الآن. أرجوكم. من يوجد لديه دم يتصل بهذا الرقم.. أرجوكم. لتر واحد. ولو أراد بعد ذلك أن أعمل له أراجوز أو عجين الفلاحة فلن أتردد لحظة. أرجوكم)

فى الردهة الطويلة، طبيب أصلع يتجول بصحبة رجل أربعيني، يخبره الطبيب أن الحالة استقرت، لا يطمئن الأستاذ مرشدي لمثل هذه التصريحات الوظيفية، لا يتركها، ينام في حديقة المستشفى المليئة بالحشرات، يذهب ليصلي في مسجد بجوار الحديقة، امتنع عن الصلاة في الأيام التالية عندما أصبح يشارك بعد كل آذان في صلاة جنازة، يتخيل زوجته وهي نائمة في الصندوق الخشبي الكئيب، فلقد نزفت الكثير من الدماء من أجل أن تعوض يوسف، اصفر وجهها الذي كان متشبعا بحمرة ريفية قبل دخولها لعتبات المبنى الأبيض الكبير، ينقلونها على كرسي متحرك بين الممرات والغرف. انتهت بها الحال إلى أنظف مكان في المبنى كله.

"غرفة العناية المركزة"

الأستاذ مرشدي يتلصص عليها من خلف الزجاج، يراها من بعيد، يلتصق أنفه بالحاجز الزجاجي، يشب طامعا في تقريب المسافة ولو لمليمتر واحد، وهي نائمة كالأموات، أمامها شاشة تليفزيونية بها حزمة كابلات متشعّبة، جردوا زوجته من كل شيء، حتى الدبلة والحلق الصغير، وضعهما الأستاذ مرشدي في حافظته، الحلق على شكل ورقة نعناع صفراء، والدبلة لا تحمل اسم مرشدي، لكن محفور بداخلها اسم يوسف.

ممرضة بدينة تسحب عليها ملاءة خضراء نظيفة، في رقبتها معلق كابل عبارة عن ضفيرة من الأسلاك، مجدول ومُتصل بشاشة زرقاء أمامها، سأل الأستاذ مرشدي الممرضة عن حالة زوجته، في كل مرة تطمئنه فيها يخرج ورقة نقود مطوية ويدسها في يدها، بعد التظاهر بالتمنع تقبض عليها مبتسمة، تذهب لسرير أم يوسف، تحثها على النظر إليه، تنظر مكدودة بعينين سابحتين في ملكوت بعيد، تتأمل الكابلات الكثيرة المعلقة في رقبتها وأطرافها، تبتسم بشفتين زرقاوين ينقصهما وهج الحياة وحيويتها، وقبل أن تفيق من مؤثر المخدر تتوه مرة أخرى في دوائر دخانيّة كغياهب الأحلام.

يتصل الأستاذ مرشدي بكل من يعرفهم، يحكي لهم المسألة باختصار، ينتهي الرصيد، يشحن كارتا آخر، يشتري بما تبقَّى معه علب عصير، يعطي كل من يخرج علبتين، يمرون أمامه ككائنات تقوم بتصوير حلم، اثنان وعشرون شخصا تبرعوا بدمائهم، سيصبح ما يجري في عروقها خليط من دماء كل الزائرين.

يسأل الممرضة، فتجيبه:

"أكياس الدم اللي انتو بتتبرعوا بيها مش هيّ اللي بنضخها للمريضة. دي بتخضع لاختبارات كتيرة الأول. ماتقلقش. حنديها من بنك الدم وناخد احنا الجديد".

المسافة بين أقرب سوبر ماركت والمستشفى ليست قليلة، رغم ذلك لم يحسب الأستاذ مرشدي كم من المرات اشترى عصائر ومثلجات، لّما هده التعب ركن ظهره بجوار صندوق سيارة الإسعاف وسرح في دنيا غير الدنيا.

رأى يوسف وهو يمسك بضفائر من السعف في قبضته، ظهره الصغير نبت له جناحان صغيران وأصبح كالفراشة، تجلس أمه في أرض خضراء، بها عيون ماؤها رقراق، يتعلق جناحا يوسف في السماء بينما هو نائم على حصيرة هواء لا أحد يراها، تخطف منه أمه قبلة طائرة، مثله تماما، يعلو شيئا فشيئا، تسحب خيطه الشفاف قُوى بعيدة وصعبة التخمين، تمد يديها، فتجده قد تحول لكائن هلامي، لا يَعْبُر الهواء، لكنه هو الهواء، يطير لأعلى، لا تستطيع عيناها المكدودتان أن تتابعاه بدقة، يتربع يوسف في مكانه القديم، في اللوح الذي قُد منه، يجلس واثقا من إغوائه، يفتن النساء بقده الممشوق، بمراهقته التي تحبو، أربعة عشر عاما لم تكن بالقدر القليل، لكنها ليست بالكثير أيضا، لن تفرق معه هذه المسائل، فالسن التي تدفع الناس لاحترام أو احتقار بعضهم البعض لا تشكل مقياسا مهما هنا، كل الفتيات ينادين يوسف هنا بـــ "يا حبيبي" أصبح مدللا بشكل واضح، فهو الذكر الوحيد في غابة شاسعة من الإناث.

جدتك

بالطبع، لا يمكنني إدراك وضعك الآن، هل يمكن أن يمر شريط زمنك عكسيا؟ يدور مؤشره على ما عايشه مقلوبا، هل فاضت كلماتك فخرجت دفقة واحدة وأخيرة؟.

ملّ المقرئ من الجلوس على التراب، وقف ونفَض جلبابه الذي أحدث هالة من التراب، اقتربت منه وأعطيته ما فيه النصيب، استكانت ملامحه وابتسم، جلس مرة أخرى وهو يردد آيات بعينها:

"وادخلي في عبادي وادخلي جنتي".

كل ما له علاقة بالجنات والفراديس، بالأنهار واللذات والأرائك، كان ينحني ويعتدل، كأن نشاط عموده الفقري هو المسئول عن تنشيط ذاكرته، ملامحه راضية بحاله وقانعة بما يفعل، ذكرني صوته الشجي وتنغيمه لكل حرف بجدتك، فقد كانت تعشق المواويل وتغنيها بصوت عذب، كان المارة يتلكأون بجوار

نافذة بيتها الطويلة، ليستمعوا لصوتها، يُقسمون أن في الدار راديو شغال ليل ونهار على أغاني أم كلثوم، ينادون ذويهم، يجلسون تحت الشباك صامتين، ساكنين، يهمس بعضهم، فينهره أحدهم، يستمعون جميعا للصوت الخارج رائقا وعذبا:

"أصبر تنول المرام دالوعد دا جاري..

والجسم مني اتنحل والدمع أهو جاري..

يا تاجر الصبر ماتغليهش ع الشاري..

دا درهم الصبر يسوى ألف ديناري.."

يندمج الجمهور المُتكوِّم تحت الشباك فيما يسمعون، يتخيلون الكلمات في صور، يصمتون حتى يمكنهم الاستماع لباقي الوصلة:

"سفينة المتقي عدت بلا صاري..

عدت بحور الحقيقة بلا قلع ومداري..

والراجل السالك الراغب

اللي أقام الليل في طاعة الباري..

روّح حموله سليمة والكل مش داري".

يمكنني أن أختصر جدتك في كلمتين، شخصية حالمة، لا ترى في الحياة كلها ما يستأهل حرقة الدم، تضحك كثيرا، كانت

حكاياتها ملفقة لكنها ممتعة، فمن ذا الذي سيستمع لحكايات منظمة؟ كل الحكايات لا بد بها شخصية تتمرد على طريقها، تصبح هي الشخصية الشيقة التي يتابع المستمع كل تصرفاتها، متى تقول، متى تصمت، وماذا تفعل عند الشدائد؟ ويتوقع دائما حركة ذكاء تطل من بين تصرفاتها، تنعطف بها الأحداث، تضيف وتحذف حتى تتخلق صورة جديدة تماما، كانت جدتك أُميّة، تمسك القلم بصعوبة، لكنها متجددة، تعرف بالبديهة ما يعرفه أمثالي بعد قراءة ألف كتاب.

كانت تهوى اختراع الطبخات الجديدة، جرّبت الجرجير كطبخة، توقفت عن التكملة عندما تراخت العيدان الخضراء وصدرت منها رائحة مخممة، جرّبت تخريط الباذنجان على السلطة، تراجعت عندما اسودت قطع الباذنجان رافضة الاندماج بين الخيار والجزر والطماطم.

على عكس جدك، والذي يُفضل التأمل، فتظل ملامحه مُكشرة طوال الوقت، تخرج كلماته قليلة ونظراته شاردة، جاء للحياة ومكوناته حائرة بين التكبيل والانطلاق، روحه قلقة وثائرة، خُلقت في عصر نائم ومستكين، عصر لا تروق له الأسئلة، بل لا يحبها، يصبح من يسأل إما متفزلكا وإما مجنونا، اجتمعت فيه صفات يمكنها أن توزع على عدة مخلوقات، لكن حدث ما حدث واجتمعت في مخلوق واحد، كان يتعمق في روح الأشياء، يحاول دوما نزع قشرتها المعروفة عنها سلفا، في أغلب الأحيان يفشل في هذه الصنعة، فيفضل الصمت، ترشيده في

الكلام كان يضفي عليه مسحة من الغموض، تُقْسم جدتك أنها لم ترَ أسنانه إلا مرات نادرة، تكاد تُعد على الأصابع، ولكنه عندما يغضب ترى الغضب على ملامحه لا يحتاج لفطنة، وعندما يفرح لا يضحك، لكنه يتخطى الحواجز والأشياء شبه طائرا، كطفل يتحسس طريق المشاعر، دخل علينا ذات مرة وهو يحشي أنفه وأذنيه بقطع صغيرة من القطن، كدوبلير لميت، مجرد نزيف لدم فاسد أثناء تأديته لعمله فوق برج المراقبة في المطار، نام يومها على أقرب كنبة، ظل يجهش في بكاء متواصل:

"أنا خايف".

قالها مرات وهو يداري ملامحه بكفيه:

"خايف أموت وآخد الكتاب بشمالي".

تجمعنا حوله، تلونا عليه كلمات لها تأثير السحر:

"وحد الله.. اللي له نصيب في حاجة حيشوفها".

كنا نردد بشكل تلقائي، وكأن أحدا داس على الزر، قام جدك يومها، توضأ وصلى، أطال في السجود بشكل مبالغ فيه، هل يفعل الخوف كل هذا؟.

الخوف..

هل تعرفه يا يوسف؟

أتخيله دائما كائنا منفصلا وله روح، ينمو من البطن، يلوي في الأمعاء، يبطن قاع المعدة بمادة تضطرب من أجلها الأعصاب، لا

ينبع من القلب كما يقولون، فالقلب ليس مرتبطا من أي اتجاه بفتحة الشرج، البطن هي التي تتقلّص وتوحي بخلخلة المفاصل، هي اللين والرخو وأول ما يتجمد إثر خروج دعائم الحياة، هي التي تستقبل الشهوات وتخرج منها الشهوات، لماذا يعطونها أقل مما تستحق؟ هي التي تخرج من أعماقها الفرحة، فتُبهج الأشداق وتُحفز اللسان مادة مُرة لكي يغني، أو يرتجل جُملا تعبر عن السعادة في حجم يناسب الخيال، يستخدم جدك الجانب السيئ في البطن فقط، لا تحفزه أمعاؤه أن

يُقبل على الحياة بقدر ما تحفزه على الخوف منها.."صبحوا رمايم يا خويا وبيدهوسوا عليهم الناس".

صوت المنشدين ورواة القصص لم ينقطع يوما من البيت، حكايات للوعظ والإرشاد، لا تخرج مثل عن موضوعات بعينها، ارتجالات حزينة، أناشيد ومواعظ.

انتقل جدّك بعد ذلك لمرحلة أخرى، سماع خطب "الشيخ كشك" كان صوته يهز جهاز المسجل ويزعج آذان المارة، عند مقطع معين يهجم جدك على زر الإيقاف ويقدم جزءا من الشريط، نفس الجزء في كل مرة، تسللت في غيابه وشغلت الشريط، كنت قد حفظت مكان القطعة المحظورة، خفضت الصوت، فأصبحت بالكاد أسمعه:

"يا مسلمين مصر.. المساكن الشعبية في حي طولون وأبو السعود الجارحي.. تفصل بين الأُسرة والأُسرة ستارة، ستارة لا

تستر عريان ولا ترحم بردان.. استيقظ الرجل يتؤضأ لصلاة الفجر فوجد.. ويا لأقسى ما وجد.. رأى ابنه صاحب الخمسة عشر ربيعا راقدا فوق أخته.. فلما دخل وسأله ماذا تفعل بأختك قال أفعل بها كما تفعل بأمي... وحدوا الواحد يا مسلمين مصر.. من القهار. الله. من الغفار؟. الله. من الواحد؟ وحدوا الواحد".

دخل جدك بعد أن استمعت للجزء المستأصل عن مسامعنا، رآني أميل بأذني في اتجاه المسجل بشكل ملحوظ، عرف بخبرته أنني كنت أستمع لذلك الجزء المحظور، في ثوانٍ لم يعد للشريط أي أثر، أخرج أحشاءه البُنية الحساسة ومزقها بغيظ، سألته جدتك:

"جرى إيه يا شيخ. حصل لك إيه؟".

فقال في غضب:

" خليكي انتي قاعده كدة مش فاهمة حاجة".

وعندما لمحني بطرف عينه أتابع الحديث عن بُعد أكمل:

"الشاي وقع عليه امبارح.. عايزاه يبوّظ التسجيل؟ هوّ احنا نعرف نجيب زيه النهاردة! دا ياباني من اللي مات أبوه ".

مرشدي

الآن، الأستاذ مرشدي يستحم، واسم مرشدي محل خلاف بين أبيه وأمه منذ مولده، قالت أمه ستسميه يوسف وأصر أبوه على مرشدي، توصلوا لحل وسط، سيكتبونه في الأوراق الرسمية يوسف وينادونه بمرشدي الذي هو اسم أحد أصدقاء أبيه المخلصين، كان رجلا على باب الله كما يقولون، لا تهمه فلوس ولا تشغله حسابات، يأكل أي شيء، يسكن في أي مكان، لم يكتسب أية أهمية تذكر إلا منذ ذلك اليوم، يوم أن مات، لم يجدوا له كفنا، فتولّىَ المسألة برُمتها أحد الصالحين، كفّنوه، وضعوه في صندوق خشبي وأخذوا يبدلونه على أكتافهم ليؤجروا على ذلك، لغاية هنا وكل شيء عادي وتقليدي، وربما ممل.

خرج عن القطيع شاب يُحمس حاملي نعش مرشدي أن يسيروا بسرعة، فكلما كان السير سريعا يصبح عمل الميت خيرا

ومصيره الجنة، وكلما تباطأ الموكب كان معنى ذلك أن عمله شر ومصيره والعياذ بالله النار. ما إن أنهى الشاب ذو الابتسامة الثابتة واللحية الخفيفة موعظته حتى توقف الموكب تماما، حمار عجوز يحمل الخضراوات في "غبيط" كبير توقف بصاحبه في منتصف الطريق وأبى أن يتحرك مترا واحدا بعد ذلك، استغفر السائرون خلف مرشدي، تأففوا، منهم من فعل ذلك بتمتمة، ومنهم من جهر بما يقول وشخط في صاحب الحمار الغبي، فهو لا يدرك معنى فعلته التي قد تُبدل الخطة المرسومة له صحف السماء، وقبل أن يتحرك الحمار من مكانه رأى حاملو مرشدي شيئا يرفع الغطاء ـــ قال بعضهم فيما بعد إنه طائر بحجم السماء وغطّى أحد جناحيه على قرص الشمس ـــ تحرك القماش الأخضر المُزين وارتعش ارتعاشة واضحة، كذّب الناس ما رأوه، لكنهم ما إن جاهروا لبعضهم البعض حتى تملكهم الخشوع وأصابتهم حالة من الوجوم، وقبل أن يتركوا النعش تركهم هو وطار، طار الصندوق الخشبي بما يحتويه، انتفضت القماشة الخضراء التي تغطي مرشدي، تهاوت ثم سقطت على رؤوس المشيعين، شدت جاذبية السماء أنظار الواقفين، اعتلت ملامحهم الرهبة وجمّدهم الانتظار، لم يظهر أثر بعد ذلك لمرشدي، لكن ظهر شيء آخر، أقام بعض الصالحين الذين يهتمون بنوادر الكرامات مقاما مكان أرجل

الحمار، بالضبط مكان أرجله، البقعة التي فتحت فيها السماء أبوابها لمرشدي.

في الصباح التالي تقدم الأهالي بطلب لعضو مجلس النواب "سعد الدين شريف" طالبوه بأن ينقل "السويقة" لأي مكان آخر، وقّع على الطلب أغلب أهالي القرية، أمام ذلك الإجماع وافق الفريق سعد الدين شريف، فخصص ميزانية كبيرة ليتم بناء مقام لـــــ "سيدي مرشدي".

ترددت الأقاويل بعد ذلك عن عبقرية اختيار المكان واتجاه الهواء البحري وأهمية الموقع الجغرافي في بقعة تتوسط القرية، وأشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل، فعندما يحدث شيء ما عجيب:

إظلام في عز النهار..

نور قوي يملأ السماء بعد أن ينتصف الليل..

طفل يولد بملامح عجوز..

شخص يكبر بملامح رضيع..

عندما تحدث مثل هذه الأشياء تصبح أسبابها كثيرة لدرجة المتاهة، يقول كل من يُسأل أنه هو سببها المباشر، أو على الأقل يعرف حقيقة سببها المباشر، فينقّب الأرض ويشحذ الخيال بحثا عن أسطورة تصلح للإثارة، يقول إن سبب المعجزة شيء يحدث في كل وقت وحين:

جذب ستارة في وقت تكون فيه أحوال النجوم على غير ما يرام..

رمي ضرس بدون إلقاء نشيد الجدّة..

قطع شجرة..

ظلم إنسان..

هدم مسجد..

رمي أوراق مقدسة بعد بلّها بالبول..

الصالحون لا يخترعون ولكنهم يبررون، من هذه النقطة يمكننا أن نُكمل.

منذ ذلك النهار وأصبح مرشدي الفقير الذي كان يشحت هدومه يُلقب بـــ "سيدي" قبل اسمه، فلا يُنطق إلا هكذا:

"سيدي مرشدي".

تعددت كراماته، تخطت بكثير مسألة طيران النعش في اتجاه السماء، أصبحت هذه هي الحقيقة الجوهرية التي يتحدث عنها الناس بما لا يدع مجالا للشك، ثم بعد ذلك تطير في الفضاءات حقائق أخرى ثانوية.

بجوار المقام كانت هناك شجرة نبق طالعة وصغيرة، لا يستطيع أحد أن يضع قدمه عليها، يستظل فقط بظلّها، أما أن

بركن حذاءه فوق أحد أغصانها أو يكتب عليها بآله حادة، فهذا ذنب لا يغفره له أحد، كانوا يطلقون عليها "الحاجة نبقة" لأنها تجدد لحاءها مرتين في العام، مرة يوم ميلاد مرشدي، ومرة يوم أن طار به النعش وشدته جاذبية السماء.

دوافع لا تحصى، لأن يُصر "أبو مرشدي" على هذه التسمية، ورغم أن الاسم الأساسي هو "يوسف" فلا أحد يعرف سوى مرشدي، حتى أن بعض الجيران يختلفون حول هذه المسألة. فمنهم من ينكر أنه يوسف ومنهم من ينفي أنه مرشدي، وهناك فريق ثالث لا يفضل التفكير ووجع الدماغ ويرى أنه يوسف ومرشدي في آن.

فالنعود إلى الأستاذ مرشدي الذي كان يستحم، طلع البخار على عينيه فضبب الرؤية قليلا، نظر في المرآة المُعَلّقة بجوار السخان فرأى نفسه ليس بمرشدي ولا بيوسف، أصبح له نهدان قويان، متماسكان، لهما حلمتان نافرتان، واختفى شعر صدره نهائيا، تلاشي مع البخار، اختلطت التصورات بعد أن تجملت عيناه وكأنهما مكحلتان، الشعر مبلل على ناصيته، يمسك بالصابونة ويحك بها بين فخذيه، لم يعثر على ما بينهما، انكمشت البضاعة للداخل وأصبحت في منزلة الذكريات، صارت يده ناعمة كأيادي المُدلكين، لم يتماسك مرشدي، انهار، وقع داخل الحمّام الذي أخرجوه منه غائم الوجه بعد أن لفوه ببشكير طويل.

منذ ذلك اليوم ومرشدي قد تبدلت أحواله، صار يلبس ملابس فضفاضة لتداري مؤخرته الإسفنجية الكبيرة والتي برزت بلا مناسبة، ويداري أيضا صدره الذي كان يبرره بأنه صدر لشخص رياضي يلعب الحديد، أما عينه فكُحلها ساحر ورباني، لم يستطع أن يفعل فيها شيئا، دارت أحاديث جانبيّة بين الناس، فحواها أن مرشدي تعاون عن طريق أحد العارفين مع روح سيدي مرشدي، وأصبحا شيئا واحدا.

وعلى الرغم من بُعد زمن مرشدي عن زمن سيدي مرشدي إلا أن أغلب الناس قد ارتاحوا لهذا التفسير، لكن قبل أن يبنوا فوقه ويشيدوا الافتراضات. ظهر رأي آخر كان لا يزال يتخلق في الأجواء، لم يكن ليتوقع أن تموت زوجته في هذه السن الصغيرة، فبعد أن حدث ما حدث. تحولت مساراته الجينية في رحلة بحث استكشافية بين طيات ذاته عمن يحب، وعندما استجابت طريقة البحث، ظهرت النتيجة بسرعة وبراعة على قسماته وتكوينه، أصبح أقرب لملامح زوجته! كان رأيا رومانسيا حالما، في النهاية هو رأي، والمسئول عنه فقط هو صاحبه.

بعض تكهنات أخرى أطلقها المقربين من مرشدي تؤكد أنه تزوج من امرأة سفلية، لم تخرج وظيفتها الرئيسية في مسالكها البعيدة عن أنها تقرع الأرض التحتية بعصا رفيعة كحبل، رقيقة كماء، في مقدمتها قوس مكون من مجسات فضية مضيئة، تُقدم

لمرشدي عن طريق هذه العصا كل ما يريد، الطعام والملبس ومراود الكحل، حتى البشكير الطويل الذي لفوه به وهو خارج من الحمّام، جاءه بعد أوامر صاحبة العصا ذات الهلال المضيء، وبرغم علمه بكل ما يُقال عنه، فإنه يقنع نفسه في كل ثانية تمر بأن ما هو فيه ليس بواقع، وكل ما فات لا يخرج عن كونه مشاهد متابعة في حلم طويل، سرعان ما ستنقشع ويعود لما كان عليه في أقرب وقت.

مرشدي الذي يأتمنه رؤساؤه في دار الكتب على سبع وخمسين ألف مخطوطة نادرة من التراث القديم، لم يستطع بعد كل هذه السنوات أن يؤتمن على بعض أسراره الشخصية، أسراره التي لابد ستسرد فيما بعد على لسان من عرفوها.

ربما تصرفات أمه كانت سببا مباشرا فيما حدث له، ذات ليلة قاحلة دبّت عصاها في الأرض فغاصت، سحبتها حتى كادت تدفن معها ذراعها، خرج طرف العصا بعد نصف متر، أصبحت كقوس مرشوق في الأرض، سحبتْ أم مرشدي العصا من الطرفين، فإذا بها تحمل في منتصفها شيئا كثمرة جوز الهند، كان صندوقا مستديرا، كبيرا وأسود، تفحصته وهي تظنه كنزا، كان عبارة عن علبة عجيبة الشكل من الزيت المُخمر في الأرض منذ قرون، وربما عشرات القرون.

ذاقته على طرف لسانها وهي تتلصص الأجواء من حولها، كان مرا ولاذعا، لم ترمه، اقتنعت تماما بأنه هدية من الأرض لا تختلف كثيرا عن عطايا السماء. كانت أصوات أذان الفجر ترج الأرض، تراتيل وابتهالات تسري كما موجة، تصنع أنغاما ربانية تنساب كنسيج يسقط من قبة السماء، ينبسط فيغطي الأرض.

دهنت بالزيت شعرها، فلمع مع نور الصبح واستطال، ابتسمت أم مرشدي منتشية كباحث قارب الانتهاء من بحثه، دهنت به كل جسدها، بعد ليلة واحدة اختفت الشعيرات الخفيفة النابتة تحت أنفها وفي أصابع يديها وقدميها، أصبحت كما لو رجعتْ عشرين عاما للوراء، بيضاء وناعمة وخفيفة، لا يهمد زوجها عن تجريب فحولته في أغلب الليالي، تكوّر بطنها بعد خمسة عشر عاما من النضوب، ضحكت في وجهه وهي تُبلغه الخبر، فابتسم بالكاد، وكأنه من المضحوك عليهم، تقول عنه إنه كان عابسا، لا يضحك، وأنها لم ترَ أسنانه منذ الزواج سوى مرتين، لكنها بعد أن أفرغتْ حمولة بطنها، وجاءه الولد المفعوص الذي يشبهه تماما، أصبحت أشداقه تنفشخ حتى تتشقق ملامحه من الضحك.

أعطى الزيت الدفين أم مرشدي نضارة ونعومة لسنوات طويلة، اعتقدت أنه زيت للقوة والجمال، فلمّا كبر مرشدي، دهنت به جسده بالكامل، كان وقتها صبيا يتحسس طريق

الرجولة، فأربعة عشر عاما ليس سن طفل، ولا رجل، أصبح جسده منذ ذلك اليوم لينا، طيعا، يهتز بالكامل عندما يتحرك أقل حركة.

لم يلتفت مرشدي إلى أن دهان أمه المسحور يمكنه أن يكون شريكا أساسيا فيما حل به، تزوج من "صفية"، والتي هي أم يوسف بعد انتهاء فترة تجنيده مباشرة، لا توجد معلومات كافية عن هذه الفترة، لا يصبح في وسعنا سوى أن نحتكم لبعض الإشاعات التي ربما لا تكون إشاعات بنسبة مئة بالمئة، فكل ما فات وطُويتْ صفحته يصبح كقطع البازل، يتم تجميعه وتبديله، وحتى لو فُقدت بعض القطع، فيمكن ترميم ما تبقى حتى يصلح نسيجا يمكن من خلاله إقامة حكاية

رائحة

دعني أتذكرك – ولو للحظات – وأنت تنساب في الأرض محتفظا بنقائك كالذهب، تتناثر أجزاؤك الصغيرة، تصاحب التراب، وعندما يتم جمعها ويكتمل، تعود مرة أخرى ذهبا، تلمع وتبهر الناظرين من جديد. دعني أتذكرك طويلا هذه المرة، تتخلخل بين ثنايا وعيي وإدراكي، تنتشر في الأجواء كموسيقى انسيابية تداعب قلبي وتمتطي وجداني، تقترض من عمر الأحاسيس منحا لا نهائية، تشعر بك، تستحث فيك الحياة، تراودك أن تستمع لأنغام الخروج، تستحلفك أن تترك عالم الأنغام النشاز، أشعر وأنا أمامك بإحساس غريب، كأنني شخص صائم يقرأ كتابا عن مجاعة.

كثيرا ما كنت أشعر أنني أرى قبل أن تُخلق لي عينان، وأشم قبل أن تُفصّل فتحتا أنفي. لا تعجب، فالثابت في هذه الحياة هو فقط الجماد، أما الكائنات الحيّة المتحركة التي تغيّر بشكل دائم الأماكن والروائح، فلا مانع من أن تتحول لأي شيء. التحول

هو الإمكانية الأكثر إغراء في حياة تتلذذ بفرض أنواع لا نهائية من التكرار.

كل ما وجدته عندما بلغت الأربعين لم يخرج عن صورة باهتة لأصول كانت موجودة بقوة في دفتر بعيد، ما يحدث بعد ذلك لا يتعدى صورا كربونية مكررة وباهتة، كنت أرى جدتك وهي تغني المواويل. أكثر من مرة سمعت موال "تاجر الصبر" بصوتها، قبل أن يتشكل صوان أذنيَ وتتخلق له خاصية السمع. قبل أن يتوسط سواد عيني محجره الزجاجي الشفاف، ربما حدث ذلك في زمن بعيد، وأنا مُصمط، ساكن، أخرس، كتلة من الوجود المستقبلي، حالة من حياة مُحتملة ومُتوقعة، على بُعد سنين ضوئية كثيرة وممتدة في جينات الخيال، كأنهم ألقوا بي من زورق وأنا متدثر بغلالة من سحاب، أو بدوامة من ماء. ربما في هذه الأزمنة كانت الحسابات رخوة، تقدِّم بالملايين وتؤخر حسب المزاج، لم يكن هناك شيء محدد، حتى البديهيات لم تكن موجودة آنذاك، كان العمر هلاميا، والأجساد تتكور ويعيد الوعي تدويرها من جديد، يصهرها ويشكلها حسب ما تراه الروح مناسبا.

مثل أبواب الكتب، كانت روح جدك، تنقسم لجزءين، جزء يهتم بما دُرِّب عليه في الحياة، يختبر جسده كل فترة وجيزة، يمشي كالتائه حيث تأخذه قدماه، يستقر صدفة في حديقة، يأكل من طين الأرض زرعا غريبا، يحمد الله ثم ينام في مكانه.

أما الجزء الآخر وهو ما يسبب لي حيرة كبيرة، فهو الخاص بروحه، يحكي لي قصصا كثيرة مرعبة، ثم يطلب مني أن أكون شجاعا، يوقظني من أحلى نومة، نذهب معا للمسجد، نقف خلف الشيخ أحمد مجاور، وبعد انتهاء الصلاة يلتفت الشيخ، يجلس القرفصاء، يتحدث عن يأجوج ومأجوج، وعن أشخاص معلقين من شعرهم النازل من الكواكب والمجرات البعيدة، يحملون فوق بطونهم حجرا يزن ما هو مقدار السماء والأرض مُجتمعتيْن.. يحدثنا عن البائس الذي ألقوا به من السماء السابعة، ولم يصل إلينا حتى الآن. يتكلم كثيرا عن الزهد، يتنافى حديثه مع كرشه البارز والذي يشبه قدر العرقسوس.

نخرج من المسجد ونحن متدثران بدوامة من صقيع، أرى البيوت الصغيرة كمخلوقات أسطوريةً كبيرة، تحرسها أشجار كافور طويلة. فكرة التخيل دائما فاتنة، تدعمها الحكايات التي لا ترتبط بواقع، السُّلم الصغير أيضا، ظهر أمامي كدودة خرافية زال عنها لحمها وشحمها، وتبقت منها فقط العظام الحلزونية. ندخل أنا وجدك الدوامة، ندوس على السلالم فتئن، كثيرا ما كنت أتحير في أمر ما ندوس عليه، هل هو حقا "موزايكو" أم كائن كانت له طموحات وأحلام في زمن ولّى وانقضى؟.

كان جدك مخلصا في تدريباته على الموت، الموت، يراه كائنا يغطي السماء بسحابة تمنع أية فرصة للمقاومة، دربني كثيرا على ذلك:

"الدنيا منفاتة يا حبيبي. سألوا عنها سيدنا نوح بعد ما عاش تسعمية وخمسين سنة.. قال لهم الدنيا دي مكان له بَابين.. دخلت من واحد وخرجت من التاني".

منقسمة روحه بين حب الحياة والتفكير في تركها، بجواره أضطر للتركيز فيما يقول، لا تتركني الخواطر المتشائمة في نهاية اليوم إلا وأنا أشبه بجثة، أنظر طوال الليل إلى فكرة ترك الجسد على أنها مغامرة لذيذة، لو أنها ستتم بما أمتلك من وعي، جسد محدود وعاجز، وروح تنطلق لتركب السحاب، تجوب الدنيا فتمسك ما عجزت عن لمسه الأصابع، وتدوس على ما يستحيل أن تبلُغه الأقدام، ترتكب كل ما عافه الجسد. يتحول الوجود بعد ذلك لحلم تتناغم فيه الألوان وتومض فيه الكلمات، يتحول الوعي لقاموس، وتتطور الرغبات فتصبح بحجم الأحلام.

دخلنا البيت، كان معبّقا برائحة القرفة التي تفضلها جدتك، كانت تقتنع بأن الحياة كلها تبدأ من حاسة الشم. عندما يتشبع الوعي بالروائح تخرج التصرفات كلها بعد ذلك كرد فعل، تضع القرفة على كل الطعام تقريبا، وترش مسحوقها على فوهة المبخرة المليئة بأصناف متنوعة من البخور قبل كل صلاة جمعة، كلما شممت رائحة القرفة بعد ذلك تجسدت جدتك أمامي، بكامل شحمها ولحمها، وبعض من روحها.

أنا لا أبحث عن كتلتك يا يوسف، فأنا أقف أمامها، أنا أبحث عن غرستك، عن حزمة ابتهالات سابحة في الملكوت تشكلت منها عجينتك، عن روحك الخائنة التي تركت صندوقك الشمعي الصغير يواجه الفناء وحده. مثلما سحبتك مني حياة غامضة لابد أن تدفعك إلى ـــ أيضا ـــ حياة غامضة، حياة جديدة، تظهر خلالها بلا مواراة، يلتقط لك المصور بعض الصور، ثم يسحب أشباحك معه للمعمل، يفرد ورقا أبيض في حجرته المظلمة، يدق شبحك حتى يصبح رقيقا، كنسمة تمر في حلم، يلصقه بعد ذلك على الورق الأبيض السلبي، فتتحول ابتسامتك إلى عدة ابتسامات، إن خفتت واحدة سطعتْ أخرى، وإن ذهبت واحدة بقي غيرها، هكذا أتمنى أن أراك، نسخا لا نهائية، إذا ما فقدت واحدة طلت من مجالك تكرارات لا تنتهي، أنت وحدك الآن مظلة السماء.

مصل

في سهرة الليلة بانت الحقيقة مباشرة بلون وسائط. في ركن قصي يقف تمثالٌ بجسد واحد وخمسة وجوه ـــ يُرجح أنه تمثال لأحد الآلهة القديمة ـــ يجلس الأستاذ مرشدي أمامه، يتوسل إليه أن يكتم أسراره، لم يعلن عن هوية هذه الأسرار: كان يحدثه من طبقة صوت شجية وخفيضة تشبه المناجاة.

لون جسد التمثال نحاسي مائل للبني، يحمل على ذراعه طفلا صغيرا يشبهه تماما، يمسك بثديه في اتجاه فم الصغير، رأسه رأس رجل، ينسدل من أعلاه شيء أشبه بحصيرة ذهبية مقلّمة كأنها آتية من مستودع الشمس، يستقر على قمة الرأس إكليل كبير كتاج ملكي، يوضع بجوار الجسد الممشوق خمسة وجوه، الوجه الأول ملامحه تقفز منها الحيوية، له شفتان متماسكتان، ممتلئتان، بارزتان، ملامح وكأنها مشدودة على قعر طبلة. أما الوجه الثاني فمستدير بشكل أكثر من الأول، له وجنتان باسمتان وعينان تطل منهما رشاقة، وأنف أكثر دقة، الشفة السفلى منتفخة وغليظة،

توحي برغبة ثابتة. أما الوجه الثالث جاءت نظرته واثقة ومحددة، لكن بلا رشاقة تطل، ولا بريق يغري، الشفتان اصفرّتا وتقلصتا إلى حد كبير عن الوجهين السابقين، لا تغيب عن ملامح الوجه الأنوثة، لكن في طورها العاقل. أما الوجه الرابع فانكمش وتقلص وغابت عنه النضارة، تجاعيد ملأت المسافات بين التقاطيع. أما الملامح نفسها فقد تهدلت بما يكفي، وكأن جاذبية سفلية شدتها، وجه التمثال الخامس كان بلا قسمات، يدفن ملامحه في شيء أشبه بسحارة كبيرة أو تابوت صغير.

يجلس الأستاذ مرشدي أمام قدميّ التمثال الأم، التمثال عارٍ إلا من الحصيرة المسدلة على رأسه، نفخ بقوة في شمعة كانت تضيء المكان، حلت الظلمة، هدأت الأصوات فيما عدا بعض همهمات بصوت الأستاذ مرشدي، كابتهالات آتية من فضاء بعيد.

نام في هذه الليلة وهو يرتجف، فالأيام تشبه بعضها، وحالة سكون أشبه بالموت تخيم على الأجواء، والناس لم يفيقوا بعد من غفوتهم الطويلة، في هذه الأجواء الصعبة، وبعد عدة أيام سافر الأستاذ مرشدي لقريته، فقد اكتشف بطريق الصدفة وهو ينظر إلى ورقة النتيجة أنه بلغ الأربعين، وبرغم أن تلك السن لا تبتعد عن مرحلة الشباب. فإن الموت يطرق باب جميع الأعمار دون حياء.

كان بعض الصِّبية يجربون شجاعتهم. يخرجون من بيوتهم بدون كمامات، ولا حبيبات "المريتينون" التي تتلخص وظيفتها في وقف زحف الوباء المقدس.

بعض العيال كانوا يُشكّلون هرجا خارجا على السيطرة، في السابق كانوا هم أنفسهم الذين يمثلون طبقة المتشردين، أكثر من نصفهم كانوا بائعي حشيش وحبوب مخدرة، أصبحوا ـــ بدون قصد ـــ هم مظهر الحياة الوحيد تقريبا، يجرون وراء بعضهم، يصفرون، يغنون أغاني المساطيل، تسقط بناطيلهم عند منتصف المؤخرة، يربطونها بحزام عريض له توكة على شكل رأس أسد فاغر الفم، يلبسون الجينز المبقع، يتباهون بالتيشيرتات الضيقة والكوتشيهات الملونة، يتحركون كيفما يروق لهم. يجوبون الشوارع معلنين تحررهم وعدم خوفهم. أما أولئك المحافظون الذين يشترون الجرائد ويستمعون لنشرات الأخبار كالمتوّمين، أصبحوا أكثر حرصا من النساء على ملازمة بيوتهم، تحولوا لمجرد كائنات كسولة. هاصوا لّما أعلنت المؤسسات الحكومية عن فكرة التقاعد الجديدة، سيبقون في بيوتهم ويتقاضون نصف الراتب.

في العلب الأسمنتية الضيقة، صناديق ملونة بها بشر كالمساخيط، شخصيات للتسلية وتلفيق الأحداث، يتفرج عليهم بشر ليسوا بمساخيط، يلبسون الكمامات، يتجرعون يوميا ثلاث حبات من "المريتينون" وهم يشاهدون أحداث مُعادة ومُملة.

في مثل هذه الأجواء كانت إشاعات بلا حصر تنطلق في طريق اللاعودة، وليس أمام الجالسين في البيوت سوى التصديق، لم يكلف أحد نفسه عناء البحث، ولم يتجرأ أحد ليُكذّب أي خبر، فمعنى ذلك أن يتقصّى، يسير في الشوارع، يسأل ويستخلص من الإجابات معنى.. على أية حال لذلك يُعد ترفا في هذه الآونة، لا يستطيع أحد أن يتحمل مشقته.

في الطريق، وبالتحديد تحت كوبري بنها، رأى الأستاذ مرشدي رجلا بملامح وجلباب ريفيين يقع على الأرض، يتلوى وهو يحمل في يده منجلا صدئا، رفع قدميه للسماء، أخذ ينتفض حتى انخلعت "البُلغة" عن مشط قدمه بعنف، في سابق العهد كان الناس يتجمعون حول مثل هذه الحالات، يقدّمون المساعدات الفعلية والكلامية حتى ينالوا رضا الناس وأنفسهم. أما يوم أن سافر، وأمام ذلك المشهد فقد دفس الجميع رؤوسهم في كراسي الميكروباص، يتابعون فقط بأعينهم ما يحدث، داعين الله أن ينجيهم بأقصى سرعة ممكنة.

الأستاذ مرشدي يجلس منكمشا على كرسيه، متحاشيا قدر استطاعته أن يلمس ملابس الجالس بجواره، كان الوضع صعبا لمدة ساعتين كاملتين، تحسس في جيبه العلوي شريط "المريتينون" اطمأن لّما عثرت أصابعه عليه من دون عناء. هو يريد أن يُبلّغ رسالته، ويحدث بعد ذلك ما يحدث، سيحكي ليوسف كل شيء،

الآن لم يعد شيء مضمونا، بعد أن أصبحت علب المناديل تحمل على أغلفتها تحذيرا وبجواره صورة جرافيك لشاب يعطس، وفي الخلفية رؤوس حيوانية كثيرة بلا أجساد. علب السجائر أيضا، رسمت على فلترها صورة مجهرية لذات الرأس المرعبة، وبعد أن أصبح فقدان الناس بشكل يومي حدثا عاديا يشبه شراء زجاجة زيت من بقال، أو نشر ملابس على أحبال غسيل. توهجت الذاكرة، أصبحت هي المكان الوحيد الذي يعمل بنشاط، سيحكي الأستاذ مرشدي ليوسف كل شيء، يتذكره كل عام، طوال سبع سنوات. لكن الزيارة هذه المرة تختلف عن سابقاتها، فبعد أن أصبحت فكرة تأكيد الفناء تعمل كمنشط لكل ما حدث وانقضى، قفزت الأحداث من ماعون الذاكرة وتناثرت براقة، لامعة وكثيفة، تشبه خطوطا متعرجة وواضحة كرسم قلب، كما لو أن بداخلها تشكلت ثانية كونية نسجت منها جميع الأحداث.

ميلاد

تأخذني منك أحداث ضئيلة، لا ترقى في الغالب لدرجة التأمل، الأحداث والأشخاص ينسابون دائما من خلالك، وكأنك نهر وكل ما يمر ويعاود المرور مجرد ماء، يتغير، يتبدل، لكنك تظل أنت النهر الكبير.

في أحد أيام شهر ديسمبر كان ميلادك، الأمطار تزلق الشوارع، سيارات الأجرة لا تستجيب بسهولة لمد ذراعي، كنتَ ابن ساعتين، مدام "شاهندة" جارتنا لفّتك في قماشة، كانت على جلابية قديمة لجدتك، حبكتْها جيدا خوفا على لحمك الأحمر من برد ديسمبر. كانت بشرتك رقيقة، حتى حَسبْت أن مجرد مداعبتي لك تُعد نوعا من الغشامة، كنت نقيا، وخارجا من غيب يصعب تصديقه، كأنه السحر، أتزوج أمك فقط وتأتيّ أنت نتيجة طبيعية لذلك، جئت وأنت تحمل من التشابه ما يحير أعتى العقول، أنف جدتك، أذن جدك، أظافر أمك، عينك الخالق

الناطق أنا، ضيقة وصغيرة كما الصينيين، جبينك يشبه من؟ لابد يشبه أحد جدودك، الجد العاشر.. الألف، تتضاءل المعارف أمام مثل هذه الأسئلة، كنت نقيا وكل من حولك ملوثون، لو لم يكن بفضل ما يحملونه من جراثيم فبما يحملونه من تجارب، كنت بلا تجارب تشبه ملاكا لا يعرف أنه ملاك، عيناك مغمضتان، ويداك تتحركان بشكل دائم، أصابعك تشبه وردة صغيرة تتفتح وتُغلق برقة، قدماك تُبدلان دراجة وهمية شفافة لا نراها جميعا، شعرك، كله إلا شعرك، حريريا أصفر، كنسيج خيالي لا يجوز أن تتحسسه يد، وضعتُ كفي الكبير على رأسك الصغير، أصبح كقبعة لها مخالب، تطرق ضربات نافوخك الصغيرة كفي برفق، همس رغبتي في حُب الحياة، أتابع عينيك الحائرتين في مغزى تأمل الأشياء، تفتحهما، ثم تغلقهما بسرعة، كنا جميعا كحلم لا نريده أن يتحقق، تنظر إلينا نظرة خاطفة ثم تغلق عينيك علينا، تفسر شخصياتنا في وعائك الصغير، تبتسم قليلا بلا سبب، أو بسبب نجهله.

جلسنا في تاكسي له أبواب تُغلق "بشنكل" كان صوتها يزعجك، تعلَّق جيب بنطلوني في الشنكل، فمزقه، سحبت قميصي للخارج كي يداري القطع، سائق التاكسي رجل عجوز يغطس في الكرسي ويتشبث بعجلة القيادة جيدا، يلبس نظارة

عدستاها كبيرتان جدا مقارنة بوجهه الضئيل، كفأر يلبس نظارة قط، طلبت منه أن يهدئ سرعته من أجلك:

"المطبات كتيرة يا بيه".

يرد الرجل وتتدخل مدام شاهندة.

"عند المطبات هدّي السرعة".

فيجيب الرجل الثابت على موقفه:

"لو طاوعتكم حفضل مهدّي على طول، وعمرنا ما حنوصل أبدا".

توقفنا أمام مركز رعاية الأطفال، صعدنا بك، كراسي الانتظار كلها مشغولة، كل أم تجلس وعلى ذراعها طفلها، تداريه بطرف طرحتها أو بطاقية مرسوم عليها دبدوب أو أرنوب، تخشى عليه من عين الجالسة بجوارها، في هذا اليوم الذي كان طويلا أكثر من المعتاد، سبحت في عالمك السحري الصغير، تأملتك وأنا أبحث عن مكان نجلس فيه، فقعادي بين النساء غير لائق. جلستْ مدام شاهندة وهي تحملك وتفعل مثلما يفعلن، طرف شالها يحجب عن الناظرين ملامحك. براويز أكثر من اللازم معلقة على جميع الجدران، شهادات تؤكد نبوغ الطبيب والدرجات العلمية الحاصل عليها، مواعيد المركز وإمكانياته، قصيدة محاطة بإطار ذهبي يشيد ناظمها بعبقرية الطبيب، شروط

الحصول على شهادة طبية، هناك في ركن بعيد جهاز تليفزيون حديث لكنه صغير، صوته تائه بكائناته المسخوطين بين استفسارات الأمهات أمام رُكن الاستقبال:

"يعني أديله الحقنة قبل الرضاعة ولا بعدها؟".

"جبت لصدري شفاطة بس برضه مانزّلش ولا ندْعة".

"اكتبيلي الكلام ده في ورقة. أصلي أنا خالته مش أمه"

لم أستطع فعل شيء سوى تأمل الداخلين والخارجين، وكأن المشهد كله يدور في تليفزيون آخر بالحجم الطبيعي.

المركز الطبي يقع على مقربة من قسم شرطة، وقفت في شرفته الصغيرة أتأمل خلق الله من المجرمين، فخيالي يصورهم خلقة مختلفة عن باقي البشر.

رأيت شخصًا بملامح عادية يجلس في الدور الثاني من قسم الشرطة، يشرب شيئا من كوب، تأملته بأقصى اتساع ممكن لحدقتيّ، لم أجد في ملامحه أو تصرفاته ما يثيرني. رجل يلبس زيّا أبيض يحدث آخرٌ لا يلبس مثله. طال حديثهما دون وقوع مفاجآت، خابت ظنوني السينمائية، لم تكلل جهود متابعتي بأن يقفز الرجل مثلا من المكتب فيقع على سيارة مليئة بالبطيخ أوالخضراوات لتمتص صدمة ارتطامه، وقبل أن ينتبه المُحقق تكون السيارة قد انطلقت بسرعة كاسرة جميع الإشارات. لابد

سيكون الطريق خاليا أمام تاجر البطيخ، وعندما يتخطى قضيب القطار يغلق عامل المزلقان الطريق بالجنزير الكبير في وجه رجل الشرطة اللاهث، ثم يمر القطار فلا يجد أمين الشرطة البائس سوى الإذعان لأوامر القدر، بعد أن يفرغ سلاحه من الطلقات في وقت عصيب، يتقافز المشهد في خيالي رغم أنه في الواقع مشهد عادي ورتيب.

قبل أن أكمل خط سير القطار وماذا سيفعل الشرطي، قطعتْ صرخة مدام شاهندة استرسالي، خرجتُ مدفوعا بقوة غريبة عليَّ تماما..

"الولد.. إلحَق الولد..".

لم يكن اسمك قد تأكد بعد، خُفت، ترددَتْ إمكانية حبس البول في مثانتي، تقاذفت قطرات بطيئة بغير تحكم، صرختها حولتني لطفل، ارتدّتْ بي حصيرة الزمن بضعا وثلاثين عاما في جزء من الثانية. رأيتك امتدادي الذي يتلاشى، كنت آمل أن يبقى منّي شيء بعد أن أذهب، أنت، أنت كنت ذلك الشيء يا يوسف، سأطل مجددا في صورتك، في ملامحك، عينك، أنفك، حركة البدّال بقدميك، كلك تشبهني..

"حضّرولي الحضّانة بسرعة".

قال الطبيب الذي خرج في اتجاه الصرخة. اللون الأزرق يزحف من قدميك إلى جذعك عازما على بلوغ هدف ما، تراخت ذراعك بسرعة، وكأنها بالون أفرغوا منه الهواء. بدأ اللون الأزرق يتنشر حتى وصل لنقطتيّ صدرك الصغيرتين. بسرعة، وفي هذه اللحظة، خلع الطبيب نظارته ونحّاها جانبا، أراحك على "شيزلونجه" الرمادي وأخذ يُدلّك صدرك بعنف لا يتناسب مع بشرتك الرقيقة، دلّك أيضا ناصيتك وقفاك. ثم رفعك من قدميك بيد، بينما اليد الأخرى تقرع مؤخرتك الصغيرة التي لم تكن تزيد على حجم وجْنة.

اللون الأزرق بدأ يسحب جيوشه القاتمة تدريجيا من أرضك، ولون أصفر خفيف بدأ في السريان، سرعان ما تحول سريعا إلى البرتقالي، ثم تدفق اللون الأحمر يُقر العودة ويعطي وجودك تصريحا مباشرا لممارسة الحياة من جديد.

تحركت ممرضة بدينة، يبدو من مشيتها أنها آنسة فاتها قطار الزواج. هجمتْ عليك، وضعتك في الحضّانة، لحُسن حظك كانت جاهزة، علّق لك الطبيب بعد ذلك خراطيم تبدو عملاقة مقارنة بجسدك الصغير. كان متوترا، فماذا سنفعل نحن؟ تداعت الأسئلة، مرت متتابعة بدون إجابات، ماذا لو أن الطبيب كان في الحمّام، ماذا لو تأخر قليلا بسبب بعض المشكلات في الهضم، لو لم تكن الحضّانة جاهزة، أو أنبوبة الأكسجين فارغة؟ أسئلة كثيرة

ومتشابكة فرضتْ نفسها في هذه اللحظات دون إجابات مُريحة. وضحْك الممرضة ثم توالت طلباتها.. حُقن، لبن صناعي، كوافيل..

كنتَ قطعة لحم حمراء، كأنها قُدّتْ من رحم أمك، فاحتفظت بلونه وهي خارجة. كالقلب المنفصل توّا عن جسد صاحبه، تنبض دون أن تتحرك من مكانك، بشرتك ناعمة، ألمسها كأني ألمس الهواء. بين فخذيك ينام عضو صغير، كحبة توت، شعرك الأصفر يشبه زغبا يغطي فروة رأسك وجزءا من ناصيتك الصغيرة، تمتَ بسرعة وكأنك مخدَّر.

تركتُ الاهتمام بلون عينيك، وانشغلتُ بصدرك الصاعد الهابط، أصبح وجودك كله يتمثل في هذه الحركة البسيطة. لم تكن شيئا يذكر منذ أيام، ومنذ أن أصبحت كيانا له معان كثيرة تغير كل شيء. وجودك في منزلك الزجاجي بمثابة انفصال مؤقت بينك وبيني، حتى عند الدخول إليك لابد أن ألبس في قدميَّ حذاء أبيض ومعقّما. دائما كنت نائما، وكأنه لا يوجد لديك وقت للاستيقاظ أبدا.

هاجس تبديل الأطفال كان يراودني، لذلك ميزتك ببعض الشعيرات الطالعة في أذنيك، وأيضا بتخيلات التشابه بينك وبين جميع الأقارب. كنت أدقق النظر إلى صدرك، مؤشر الطمأنينة، في الدقائق القليلة التي تستيقظ فيها، كنت تتثاءب، تستدير

شفتاك الصغيرتان، في أقصى اتساع تُكوّن شكل خاتم، تتذوق طعم لعابك بعد كل تثاؤب، تنظر إلى سقفك الزجاجي، يبدو أنك لم تكن تراه، ربما كنت تتأمله، أو بالأدق تستفسره، هل كنت تعرفني. أم كنت تنظر إليّ ولا تراني؟ من يرى حقا ينظر مباشرة في العين، لم تكن قد تدربت على أساليب التعارف، بجوارك صناديق زجاجية أخرى، ثلاثة، أربعة، عيون ذويهم الكبيرة تراقبهم، تتطفل عليهم، ينظرون إلى صندوقك فقط لإجراء المقارنات، تعود العيون الكبيرة مرة أخرى لمتابعة الكائنات الدقيقة التي تخصّهم.

"الحمد لله الحالة استقرت".

قال الطبيب وهو يطلب منّي مغادرة الحجرة الزجاجية. أكدت موظفة الاستقبال على أمر استقرار الحالة وهي تطلب مني مبلغا تحت الحساب، دفعته، تقف مدام شاهندة خلفي وهي تقول بصوتها المبحوح:

"جرى خير. احمد ربنا. الولد انكتب له عمر جديد".

حمدت الله بصوت عالٍ، نزلتُ إلى الشارع وأنا أشعر بأنني قد تركت بعضي في الدور الثالث، داخل الصندوق الزجاجي في الغرفة المعقمة. الشارع يعج بالحركة وتكثر فيه الناس، لكنني لا أراهم إلا أشباحا غير مكتملين. استوقفت تاكسيا، انتبهت هذه

آخر ما نطق السيد العبط قبل ذلك بأيام، أن الأستاذ مرشدي تزوج. قال إنه حضر حفل زفافه منذ سبع سنوات قضاها بلا إنجاب، تحركت البذرة في أحشاء عروسه التي اختارها أبوه قبل سنوات، منذ فترة لم يجتمع على تحديدها أحد، قرر أبو مرشدي أن يحتفل احتفالا غير مسبوق، سيمتد ذكره طويلا بهذه البشارة، يوسف قادم، أطلقوا الاسم قبل أن يتأكدوا من نتيجة الأشعة، في مثل هذه الحالات يصبح نوع الجنين أهم من الجنين نفسه.

قبض تادرس بيده الغليظة على يد السيد العبيط الطرية، خطف منه الميكروفون الذي يشبه باذنجانة رومي وبه فتحات طولية لتمرير الصوت، عندما جذبه قُرب فمه.. كان في جعبته كلام عن حكاية يوسف وما شابها من غموض، لكنه فور أن رأى الإمكانية بين يديه تمهّل قليلا، ثم بدأ يتحدث عن نفسه، كيف هجر قريته التي يحفظ فيها الناس أنواع الحصى وأسماء الجبال، وأتى إلى مدينة يتوه فيها الناس، حتى لا يستطيع أحدهم التعرف على نفسه لو نظر في مرآة.

كان منظره وهو يحمل سيخه الذي أصبح كجزء منه، يشبه بلطجيا أو قاطع طريق جاء ليفسد الليلة، سرعان ما تأكد الحاضرون من عكس ذلك التصور عندما بدأ تادرس في الحديث:

"لا أستطيع القول بأني مظلوم، فقد شاركت في ظُلم نفسي، ربما وأنا لا أدري. لا أستطيع أيضا أن أقول إنني سآخذ حقي بيدي، لم تعد هناك منح عمرية تسمح بذلك، فقد شاب شعري وانحنى ظهري، تمكّنتْ منّي الأمراض حتى استفحلت، لا أعرف ماذا حدث بالضبط، فقد كنت أنوي الحديث عن الماضي، لكن عندما حاولت الغوص فيه وجدته جرابا خاليا، أحداث متشابهة، روايات عشوائية لا أستطيع من خلالها تمثيل دوري كما يجب، من سيصدق أنني من المفترض الآن أن أكون صاحب بضاعة وتجارة، أو حتى شيء يشبه ذلك؟ فيم تفيدني نظرات العطف التي تعقّد المسألة أكثر؟ أنا الآن أمامكم، عاجز، لا أتذكر حدثا كاملا.

وأنتم..

أنتم جمهور طيب، لا يقف في طريق نجومية أحد، تستمعون للسيد العبيط أو تنتظرون ما يثير في سيرتي، تجتمعون للاحتفال ببشرى غير مكتملة، ترون أن الحديث عن يوسف الذي هو في مجاهل الغيب أهم من الحديث عن "عازر" أخي، ابن أمي وأبي، سأحدثكم عنه بالتفصيل، ولكن بعد أن ينتهي الشيخ من إحياء الليلة، لا داعٍ لأن تتعاطفوا معي الآن، فلتفرحوا وتأكلوا وتنبسطوا أولاً.

تادرس

ذكراك تكحتني يا يوسف، تزيل القشور، تلمس تجويفي، تُفر الطبقات واحدة تلو الأخرى، تصل بي إلى وردة جافة بعد تخطي طبقات كثيرة، أعرف أني قد وصلت إليك عندما أشم ريحها ويأخذني عبقها فأتذكر...

في أحد الصباحات كان جدك يقف عند صالة الوصول رقم 3، عندما وصل الفنان "فريد شوقي" عائدا من تصوير فيلم بلبنان، فهافت كل الناس عليه إلا جدك، استفز الممثل المشهور بعدم اهتمامه به، فسأله:

"أنت مش عارفني؟!"

"لأ. ماعرفكش!".

أجاب جدك بحدة، فابتسم فريد شوقي ونظر حوله ثم عاود سؤاله:

"عمرك ما سمعت أبدا عن وحش الشاشة؟".

"لا أعرف وحش الشاشة، ولا وحش الغابة".

أجاب جدك بشكل أكثر استفزازا، فأحرج الممثل الكبير بدون قصد. تكرر ذلك مرارا مع شخصيات معروفة من المفترض أن يعاملها برقّة تتناسب مع مكانتها، لم يكن يعرف من الممثلين سوى "إسماعيل يس" هو الوحيد الذي تمنّى لو يقابله بين الوافدين في المطار، كان يوم تعيينه في المطار موافقا لذكرى وفاة إسماعيل يس الأولى.

كثيرا ما أخذني للصالة رقم 3 ، كان يكسر كل القوانين، ندخل معا إلى ساحة مهبط الطائرات. الطائرة التي كنتُ أراها سابحة في الفضاء كبُرص صغير أصبحت أضعاف حجم بيتنا. نعود ثم يطلب لي "شاي وصابة" من الكانتين. تكررت مخالفاته حتى نقلوه إلى برج ناء يمكن للوحدة داخل حدوده أن تصيب بالجنون. لم يجنّ جدكَ، على العكس من ذلك، وجد نفسه في الوحدة والانعزال عن العالم. كان يعوّض وحدته في العمل بشكل يناسبه، يعود للبيت قبل الغروب بقليل، يفرش حصيرة أمام البيت، تحفظ جدتك مزاجه جيدا، تفعل ما يريد قبل أن يطلبه، تُخرج له طبق الترمس المملح، والحمص الشامي المسلوق يطل بين حبات الترمس على استحياء، كثيرا ما كان يشخط فيها طالبا إياها أن تزود الحمص أكثر من ذلك، في إحدى المرات قدمت له طبقا كاملا من الحمص، لم يمد فيه يده، اكتشف بعد

ذلك أن تنقية ما يحب مما لا يحب هي اللذة، وليست المتعة أبدا أن تُقدم إليه المُراد دفعة واحدة. تُشعل له الفحم في منقد صغير، يسحب من الطبق حبّتين، ثم يسحب نفَسا من خرطوم الجوزة.

تنشغل جدتك في تربية الطيور من كل شكل ولون، ويجلس هو في الشارع مع تادرس، يضع ذراعه على ركبته، يطوح كفه وكأنه يلطم الهواء، الحركة لها معنى واحد حفظتْه من كثرة التكرار، أن مزاجه ليس على ما يرام، يطالبها ببيعها. تملأ الطيور البيت كله برائحة لا تطاق، فظلات الطيور في كل ركن من البيت، يتنازل عن قسمه عندما تتبدل الروائح الخبيثة بأخرى طيبة، بعد أن تطيح جدتك برقابهم، تزداد نكهة الرائحة وطيبها عندما ترش الحبهان والقرفة على وش الحلة، فيتنازل ببطء عن حدته، يتركها ويُكمل ليلته مع تادرس، يتكلمون عن زمان وأكل زمان، يتبادلان الأدوار في تأليف المواعظ، تُختصر الدنيا كلها في جُمل يتباهي بحفظها:

" فالنسوان بَلاَ، والزمن غدّار، وحصيرةْ مِلْك أفضل من فدان شِرْك.. وشورة المَرَه إن صحت ترجع ورا سنة.. وان خابت يبقى عليه العوض فى العمر كُله".

ينغّمها أحيانا علة شكل مواويل:

"غلطان عشان سلّفت مالي بزيادة. في الأخد زي النكاح وفي الرد زي الولادة".

إلى آخر هذه القناعات التي يحفظها ويجيد إلقاءها، فالفاضل فاضل والدنيء دنيء، لم أكن أسلّم بما يقولانه غالبا، فالشخصيات الدنيئة لها سحر أكثر من أولئك الطيبين، الثابتين على مواقف واحدة لا يحيدون عنها، بل لا يفكرون في غيرها أبدا. أما أولئك الدنيئون عديمو الأخلاق فهم المحركون الحقيقيون للأحداث. والمادة المنشطة لدفع عجلة الصيرورة.

يأخذ جدك أغلب مقولاته من تادرس، ذلك الرجل ذو الاسم المرعب.

"ت ا د ر س"

كلما سمعت هذه الحروف تُنطق متتابعة بذات الترتيب يقشعر جزء ما في كياني، وربما كياني كلّه، كان تادرس يسكن تحت بئر السلم، يعيش عيشة الكلاب الضالة، وكان فاقدا لإحدى قدميه، أو بالأدق له قدم كاملة وأخرى عبارة عن نصف فخذ فقط، وما تبقّى منها قطعة حديديّة صمّاء، قدم بديلة ملساء مرعبة، يحجبها عن الأنظار بفردة شراب بُنية، دائما بُنّية. كنتُ أقارب بينها وبين يد حديدية تطحن الفول وتحوله لطعمية بعد خلطه بالخضراوات وبين قدم تادرس، هو الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يخلع قدمه ويضعها بجواره، ويخلع أسنانه ويغسلها، ثم يضعها مرة أخرى في فمه، ويخلع في شهور الصيف جلابيته الرمادية الوحيدة التي يُعرَف بها من أي اتجاه، وكأنه وُلد بها، يجري تادرس

معتمدا على عكازه فقط، لا ينتظر ربط أبزيم حزام قدمه الحديدية عندما يرى كلبين ملتصقين والعيال تزفّهما، يهشهما، يضربهما، لو لم يحدث الانفصال يركلهما عدة مرات بشدة:

"المنظر ده ما يصحش كده في الشارع.. عشان كده اسمه كلب.. كلب".

هكذا يقول لكل المعترضين على معاركه التي لا تنتهي مع الكلاب. يستقي جدك من بعض كلماته وأفعاله الحكمة، كان تادرس بدينا بفعل جلوسه الكثير وقلة حركته، يشربان الشاي هو وجدّك، "يمزمزان" الطعم، الفُرجة على "الرايح والجاي" بصاحبة بخار الشاي ودخان الجوزة لها سحر ونشوة. يبدأ تادرس في ممارسة هوايته المفضلة، يحكي عن غدر الزمن، تلك الاسطوانة المشروخة التي يدور في رحاها كل من ترك نفسه لسلطة الزمن، ويبدو أن تادرس له قصة حقيقية، كانت حكاياته مؤثرة ومقنعة، كنت أرى أشخاصه يتقافزون حولي وهو يحكي عنهم، أنتظر أن أقابلهم ولو صدفة في مكان ما.

تركه إخوته بعد أن أصبح عاجزا، سلبوا منه كل ما يملك، حتى تاريخه سلبوه إياه. من يصدق أن تادرس، ذلك الكائن الحديدي كان يعمل في سوق العبور، قبل أن تطيح به سيارة نقل تحمل أسماكا مثلجة، ولو لم يكن تادرس ذا بنية فحلية لكان الآن في عداد الموتى. أثناء رقدته التي طالت في مستشفى السلام

كانت الترتيبات تتم بهدوء لتغيير بعض المسارات، فيمكن "لعازر" أخيه الأكبر، أن يزوّر توقيعه السهل الذي لم يكن يتعدى حرفيْن تاء وسين مشبوكتين في بعضيهما. لماذا يفعل عازر ذلك؟ لماذا يزوّر؟ سيوقّع تادرس بنفسه، ليس من حقه أن يعترض على التنازل، فقد وافق إخوته جميعا على طرده من جنة الميراث، رضى بنصيبه، كان يعرف أن الفرصة جاءت لعازر على طبق سحري ليقيم عليه الحُجّة ويحكم بذلك الحكم القاسي.

كان عازر في الثلاثين، عندما تزوج من دميانة ابنة عمه، وتادرس يصغره بعشر سنوات، يأتي كل إجازة من وحدته العسكرية فيبيت عند أخيه:

"شكلك حلو أوي بالبدله الميري يا تادرس"

تقول له دميانة. فهي زوجة أخيه وفي مقام أخته الكبيرة، تضع له الطعام وتغسل له ملابسه الميري وغياراته الداخلية، لم يعترض عازر أبدا على ذلك، بالعكس، كان يشجعها على المزيد، فتادرس أصغر إخوته، وقد أوصاه أبوه قبل وفاته منذ خمسة أعوام به تحديدا، دونًا عن كل إخوته.

سارت الحال على هذا النحو حتى كانت الصفعة المدوية على قفا تادرس.

في أحد الصباحات البعيدة نزل إجازة من وحدته العسكرية، خلع بدلته الميري ونام بلباسه وفانلته الحمّالات في حوش البيت

الكبير أمام غرفة نوم عازر، والذي جاء بعد قليل من السوق يحمل على كتفه طاولة السمك، وفور أن رأى تادرس نائما بملابسه الداخلية وغارقا في عرقه. "والأفرول" الزيتي ملقىً على الأرض بشكل عشوائي، مى بحمولته فتناثر السمك البساريا الصغير وفرشت قطع الثلج المكان، زحفت سمكة صغيرة ووصلتْ لوجه تادرس، لمس ذيلها البارد بشرته، فاستيقظ يفرك في عينيه، أخذ يجمع السمك ويضعه في الطاولة الخشبية مرة أخرى:

"مش تاخد بالك يا خويا. قلت لك ميت مرة غيّر العتبة اللى كلنا بنتكعبل فيها دي".

قال تادرس وهو يلملم السمك في راحتيه ويقذف به في الطاولة الخشبية الكبيرة، لم يهتم بملامح أخيه الأكبر التي تقول كل شيء.

"حفيّرها"

قال عازر وهو يفتح باب غرفته بقوة، انخلعت الأُكرة في يده، دميانة نائمة على سريرها بقميص نوم بنفسجي فاتح، شعرها مفرود على وسادة طويلة ملاءتها بيضاء، عمدان السرير الحديدية تهتز بقوة زلزال، استيقظت دميانة على يده تمسك بشعرها:

"جرى لك إيه يا عازر؟".

سألتْ دميانة، لم يسمع عازر صوتها، جرّها للخارج، تادرس يعطيهما ظهره ويلملم سمك البساريا الصغير، مازال يضعه في الطاولة الخشبية باجتهاد من يريد أن ينال ثوابا. يرى دميانة بقميص النوم، وعازر يقبض بقوة على شعرها من الخلف، يقف في حيرة، فانلته فيها من الثقوب ما يفسد كل محاولات الستر، ولباسه أيضا كان "أستكه" واسعا وبه ثقب يظهر جزءا مشعرا من فخذه، أمسك اللباس بيد، بينما ترقد في يده الأخرى بعض الأسماك الصغيرة، احتار ماذا سيفعل بها.

اختفت الطاولة الخشبية القريبة من أمامه، لم يرَ تادرس عازر ولا دميانة، فقط كان يرى فم يصرخ بلا صوت، وأشياء ترتطم بأخرى وهو ينظر في الأرض. استفسارات بعيدة ومتتابعة، يحاول ربطها بالصور المتلاحقة أمامه، ما معنى نظرة عازر هذه، ودميانة تقف كفأر مذعور بين يديه؟

"نمت بهدومي الداخلية بره. وإيه يعني. مش أحسن ما أخبط على مرات أخويا عشان تناولني جلابية".

وقف تائها يحدّث نفسه، لم يعطه عازر فرصة كبيرة للتفكير، رمى دميانة بين قدمي تادرس، واستل من بين عروق الخشب المسقف بها البيت سيفا طويلا، فتدلت بعض ثعابين صغيرة تشبه الدوبارة:

"ولا كلمة".

قال، ثم جذب ابنه الصغير من يده، مال على أذنه. انصرف الولد سريعا، وضعت دميانة يدها على فمها، وهي ترتجف وتنتفض. أما تادرس فقد أجمه المشهد لثوانٍ:

"فيه إيه يا خويا؟".

سأل تادرس، فرشق عازر سن السيف في منتصف جبهته:

"مش عارف فيه إيه.. ياللي وصّاني عليك أبوك".

رد عازر، فهمّت دميانة بالوقوف:

"والعَدْرَا انتَ فاهم غلط".

قالت دميانة. فنقل سن السيف من جبهة تادرس لمفرق ثدييها:

"العدرا منك بريئة. إنتِ اللي زيك يخرس خالص لحد ما يشوف أمره الكبار.. أما انتَ يا ابن أمي وأبويا، فحسابي معاك مش أنا اللي ح احكُم فيه".

برزت قطرتا دماء من جبهة تادرس ومثلهما من مفرق ثديي دميانة، ثم جذبها عازر من شعرها ورماها بين قدمي أخيه مرة أخرى، ينصب سيفه الطويل في المسافة التي تفصله عنهما.

غامت ملامح تادرس، لابد أن يكون ذلك حلما سخيفا، سيفيق، سيصحو فيجد دميانة تقدم له ولعازر طاجن المسقعة بالبطاطس التي يحبالها، سيأتي عازر من "السويقة" وهو يحمل على رأسه طاولة السمك، تسحبها دميانة للداخل، تُفرغها كما تفعل في كل الأيام، تضع السمك في الثلاجة الخشبية المغلفة بغلالة من الخيش السميك، تضع كل نوع في الركن المخصص له، تنقسم الثلاجة التي صنعها النجار لأربعة أماكن، درجان كبيران من الخشب للتخزين السريع، وصندوق خلفي غويط لا يخلو من الثلج، ورف أمامي للطاولة المُعدة للبيع، دميانة تحفظ الأماكن جيدا، كما تحفظ أيضا طريقة تكسير ألواح الثلج فوق الأسماك، وتعرف المدة التي لو تركتْ فيها السمك بعيدا عن الثلج يصبح فاسدا، لابد ستعمل لهما دور شاي خمسينة حبر، يشربانه، ويحكي عازر عن بعض ذكرياته، يحكي عن "بصير" أبيه الذي أسره اليهود في حرب **48**، لم يكن مسلما ولا يهوديا لكنهم أخذوه في الرِّجلين. سيحكي له عن الذئب الذي ينتظر الناس يوم خروجه من خلف التل، وسيحكي أيضا عن مُنشد الربابة الذي أصابه العمى حتى لا يرى الراديو، لابد أن تادرس يحلم. لا، تادرس لا يحلم، فقد رأى ما يثبت ذلك.. "فارس" عمهما الكبير الذي حضر بسرعة وكأنه سقط عليهم من بين عروق السقف الخشبية.

دميانة لاتزال تضع يدها على فمها وترتجف، تجلس بين قدميّ تادرس، شعرها المهوش يلمس الشعر الطالل من ثقوب لباسه البالي، لاتزال يد تادرس قابضة على بعض الأسماك التي تفتت وباشت، لم يُطلق فارس كبير العائلة حُكمه جُزافا على هذا المشهد الموحي. لكنه سأل أسئلة كثيرة لم يسمع منها تادرس شيئا. بعد فترة صمت ليست قصيرة انصاع الكبير لشهوة الزعامة، فانفرد بإصدار الأحكام واحدا تلو الآخر، سيأخذ عازر ابنه ذا العشر سنوات ليعيش معه، سيترك دميانة حتى يروا فيها شأنا، سيُحرم تادرس من أي مليم في الميراث ويُنفى في الأرض.

عند هذا الحد توقفت حكاوي تادرس، انقطع فجأة ثم اختصر سنين كثيرة وظلّت حكاياته تُكمل ما انقطع، تماما كما يحدث في الأفلام.

عازر معلم أسماك كبير، يبيع ويشتري ويتحكم في الأسعار، منذ سنوات بعيدة وبالتحديد في بداية الثمانينيات. باع وإخوته بعضا من فدادينهم الزراعية واشتروا محلات، أو بالأحرى أكشاكا في سوق روض الفرج، سار الحال على ما يرام والإخوة الثلاثة يقسّمون أرباحا يومية تتعدى الألف جنيه. ولكن لأن الرياح لا تعرف على وجه الدقة ما تشتهيه السفن، فقد أنشأت حكومة عاطف صدقي بعد ذلك بسنوات قليلة سوقا كبيرا في مدينة العبور، بديلا عن السوق القديم في روض الفرج.

هاج التجار وهددوا برفع قضية ضد الحكومة، كان عازر وإخوته أول من شجعوا إقامة الدعوى، وبعد شد وجذب بين

التجار والحكومة انتصر الحكم النهائي لصالح الأخيرة، فلملم التجار طاولاتهم الخشبية وشحنوها في سياراتهم النصف نقل، ذهبوا حيث لا يعرفون أي الطرق سيسلكون لهذه الصحراء التي يسمونها سوقا.

مرت السنوات وهم لا يعرفون لتادرس مكانا، أو بالأدق لم يشغلهم الأمر، لم يفكر أحد من إخوته أن يسأل الآخر عنه، حتى ظهر فجأة كما اختفى فجأة.

بملابس مهترئة ورأس أشيب وملامح مر عليها مئة عام، ظهر تادرس، وكأنه سقط من ثقب زمني، بدينا، يلبس جلبابا قصيرا بشكل ملحوظ، عيناه حمراوان، أسود البشرة، مُتكوم كشوال بجوار محلات إخوته، يجلس على صف من صناديق الرنجة الفارغة، أمامه "أُورمة" صغيرة وبجواره أسلحة تنظيف السمك. تشتري النساء كل ما يحتجن من الأنواع، تستقر أغلب المشتريات عند قدمي تادرس..

"تنضيف الكيلو بربع جنيه.. الدنيا غليت.. الأسعار اتجننت".

يقول تادرس لنفسه..

"التلاتة كيلو بجنيه.. أخيرا تنضيف كيلو السمك بنص جنيه بحاله".

كان بمنظره هذا هو الأضعف والأفقر والأحقر، لكن شيئا ما في ملامح عازر كان يخشاه، ليس عازر وحده، انتقل الخوف إلى كل إخوته، أصبحوا يخشونه جميعا، يهابونه بجلسته الصامتة كعفريت، لا يرمون عليه تُ بة، ربما تكوّنت رهبتهم منه بسبب ما حدث في أحد الصباحات.

كان تادرس يذبح قراميطا حية لسيدة تجلس بجواره، مر عازر من أمامه، فلم يدرِ تادرس بنفسه إلا وهو يمزق القرموط إربا وهو حي، في ثوان قليلة، بدأ تخريطه من ذيله حتى رأسه، نبهتْه السيدة لغشمه وسرحانه، كانت أُجرته عن تنظيف خمسة كيلو سمك هي ديّة القرموط، نسيت السيدة قبل أن تنصرف مأساة القرموط، لكن يبدو أن عازر لن ينساها أبدا.

في الصباح التالي دخلت إلى السوق سيارة أسماك قادمة من السويس يقودها سائق قصير يكبس في رأسه برنيطة كبيرة من القش، للخلف رجع بسرعة طائشة حتى استقر إطار سيارته الغليظ فوق قدم تادرس اليسرى.

" حاسب..حاسب".

أصوات استنجدت واختلطت بصراخ تادرس المكتوم، سقطت أسنانه كحبات ذرة بعد ارتطام وجهه الصخري بالأرض الخرسانية، بسرعة، نقل منظّفو السمك تادرس إلى مستشفى السلام في سيارة نصف نقل "مزفّرة"..تفتت عظام قدمه ولابد

من استئصالها"، قال طبيب المستشفى بملامح هادئة وسحنة وظيفية.

ثلاثة أشهر من العلاج البائس، كبر تادرس خلالها مئة عام أخرى. فمن المفترض أن يكون أربعينيا، وأربعيني تعني مساحة لا بأس بها من الشباب، لكنه أصبح كمعمّر أخرجت له الشمس لسانها الطويل عشرات الآلاف من الصباحات.

خرج من المستشفى عجوزا يناديه الناس بعم الحاج، ومن يرَى منهم الصليب يتقاطع فوق شرايين يده يناديه بـــ "المقَدِّس".

طيف كالحلم، يمتد شريطه أمامي، أرى من خلاله صورة تادرس بقدمين كاملتين، يسير مثلنا، أحيانا كنت أنقل ذلك المشهد إلى ركن في تصوراتي مخصص للهواجس، وأحيانا ينتزع نفسه بقوة ويذهب سريعا لركن الحقائق.

يجلس تادرس على دكة خشبية مُرجّح أن تكون مسروقة من مدرسة، يضعها خارج سور الخرابة كل مساء. وقصعة فحم هي وقوده الذي يغذيه من مخلفات الخرابة، شيئا فشيئا اشترى "باجور" شرائط لعمل الشاي، وبعض الأكلات السريعة.

لم يعد خوفي من اسم تادرس فقط، بل أصبح أيضا من نظراته التي تطلق سهاما مبهمة، أنظر إليه وأسأل نفسي: "ماذا لو أصبح هذا التادرس كاذبا، ماذا لو أنه فقط مؤلف رائع، أنكون قد

عشنا وانقضت حياتنا ونحن نتعاطف مع كذبه، هل من نستمع لقصصه شخص حقيقي؟"

كنت أراه كأنه قناع لنا جميعا، كخيال نحتاج إليه وقت الشدائد.

تطورت علاقة جدك بتادرس، أصبحا يجلسان معا أمام البيت، يشاهدان المصارعة الحرة للمحترفين.

"ولعي لنا علي كبايتين شاى".

يقول جدك لجدتك، وتنفخ بغضب لا تستطيع ملامحها كتمانه:

"قلت حاضر.. حاضر"

لم تتردد ولو مرة عن كسر "الكوباية" التي يشرب فيها تادرس، تقلبها على فوهتها كعلامة لرميها على البلاط في أقرب فرصة، يوما بعد يوم تتناقص الأكواب، لا يهم، فجدك لن يراجع نفسه في الأمر، كان جلوسه مع تادرس خارج دائرة التفاوض، يندمجان في متابعة ضرب المصارعين لبعضهم البعض، يتوحدان مع الشخصيات التليفزيونية مفتولة العضلات، يحفظان ملامح "هوجان" و"فيدر" و"آندر تيكر" ينتصر جدك للأطيب وليس للأقوى، على عكسه تادرس، والذي لا يحب الضعفاء. يُخرجان التليفزيون الأبيض والأسود، يضعانه على "بستلة" مقلوبة،

يفترشان حصيرة طويلة مواجهة للشارع، يمدد تادرس قدمه الوحيدة، تظهر الأجساد الفولاذية اللامعة على الشاشة، يهرش في قدمه السليمة كثيرا، يؤكد لنفسه أن له قدما لاتزال موجودة، يكشفها بتباه، يُحرك كاحله في جميع الاتجاهات، يُطرّقعه، يخرج "آندر تيكر" من بين سحابات الدخان الكثيف، يرتدي صديريًا جلديًا ملتصقا ببنطلون من الخامة نفسها. يشتبك مع آخر ضعيف، سرعان ما يطرحه في منتصف الحلبة جثة ساكنة بلا حراك، يتعاطف جدك مع الرجل الضعيف، فلا يسلم من تريقة تادرس الذي يرى أن الأقوياء هم من تشكلت منهم قوة الأرض. أما الضعفاء فوظيفتهم الوحيدة هي إثبات قوة الأقوياء باستكانتهم وتخاذلهم، لم يتجاوب جدك مع رأي تادرس، يرى أن الضعفاء هم عجينة الطيبة والوداعة الخام، والأقوياء هم خدم الشيطان وعبدته، يقول لتادرس، فيستفزه ولا يرد عليه. تضع جدتك الصينية وهي تتحاشى النظر لعينيّ تادرس، وبعد أن يشربا الشاي ترفع الصينية وعليها كوباية بتفَلها وأخرى مقلوبة.

كنت أحلم بتادرس وأتخيله دائما ذلك الرجل الذي يصارع التنين، أو أراه صورة قفزت لتُجرب الحياة من بين مجموعة الصور الصغيرة التي يعلقها فوق رأسه تحت بئر السلم، وبرغم صغر المكان كان شديد الحرص على إظهار ديانته..

"الله محبة"

"لوحة مصغرة لرحلة العائلة المقدسة"

"لوحة أخرى للسيدة مريم وهي تحمل رضيعها"

رأيت تادرس نبيا من أولئك البشر الاستثنائيين الذين يظهرون دائما كضحايا للبشرية. مرة أتخيله بلا أب وأحيانا بلا أم، نبتا شيطانيا، يطرده الكفار بأفكاره وكاريزمته من وطنه، يصبح شريدا لا أهل له ولا ملاذ، يتطلب مجيئه تابوتا ينام فيه ويقذفه أحد أقربائه في اليم، يطرده الموج فيأتي زاحفا فوق زبَده، يربيه شخص غريب حتى يصبح كأعجوبة خارجة توا من أحشاء القدر، يحن دائما إلى أن يعود للمنابع، يصبر صبرا جميلا حتى يجني فوائد الصبر مجتمعة في يوم واحد طويل، يصبر على بلوائه آملا في حسن الجزاء.

لم يكن سلاح تادرس عجائب أو كرامات، لكنه سيخ من الحديد تبقّى من بناء العمارة التي كانت خرابة أمامه، أو بالأحرى كانت خرابته، فيها قضى ست سنوات، يجلس وسط القمامة ولا يتقزز من رائحتها، يزوره كل صباح رعاة الغنم، يدخل "عيد" وأخوه، يجدانه نائما، ترعى أغنامهما ساعة.. ساعتين، تمتد يد عيد بطبق كبير من لبن الماعز، يتناوله تادرس بيد، بينما الأخرى لاتزال تفرك لتثبيت الصور في عينيه. يضع الطبق بجواره، بعد أن يذهب عيد بساعات يصحو تادرس، يستند على عكازه الحديدي، يخرج من بوابة السور الخشبية القديمة، يشتري رغيفين بلدي، يذهب للمطعم، يسخن الخبز ويغلي اللبن، يُقطع الخبز

قطعا صغيرة، يرميه في طبق اللبن، يأكله وهو يتابع المارة حتى يهضمه، يذهب بعد ذلك إلى المقهى، يلعب طاولة على المشاريب، الدور "المارس" رهانه ساندويتش كفتة قبل الشاي، ولأنه حريف في قرص الزهر وتحديد المسافة بدقة بين الرمية ومساحة صندوق الطاولة الخشبي، فيضمن عشاءه في أغلب الأيام.

ظهر صاحب للخرابة فجأة، وضع عليها لوحة لعمارة سكنية كبيرة، حولها حديقة وأمامها رجل يركب سيارته ومن خلفه تلهو كائنات نظيفة تشبه الأطفال، عنوان اللوحة "برج الصفا والمروة" بناها عشرة أدوار، الركن الذي ينام فيه تادرس خصصه المالك للمصعد، كان ينظر للبناية الأسمنتية بعد تشييدها، يتمنى أن تصبح له فيها شقة بها خلاطات ماء سُخن وبارد، مفروشة بالسجاد ومدهونة بالزيت. أحلام ساذجة وبعيدة المنال، فقد اختاره الحاج صاحب برج "الصفا والمروة" حارسا على مواد البناء، أسمنت.. حديد.. أخشاب الصبة الخرسانية.. بعد ذلك خصص له الحاج بئر السلم ليستكمل فيه ما تبقّى من حياته، وبالمرّة يشوف طلبات السكان ويتقاضى مقابل ذلك أجرا.

" بقى موظف محترم في المطار يقعد مع بواب نكدي عمري ما شفته بيضحك أبدا!".

تقول جدتك ولا ينتهي كلامها عنه ولا عجبها منه:

" تادرس بتاعك ده ممكن يمسك سكينة ويدبحنا كلنا واحنا نايمين".

يتأملها جدك وهو يهز رأسه هزة العظة التي تميزه.

حصل تادرس أثناء حراسته لمواد البناء على سيخ طويل من الحديد، لم يفارقه منذ ذلك اليوم، يتعارك به، يضعه بجواره تحت بئر السلم، يطيح به في وجه أي شخص، يكفي أن يتحرك متطوحا تميل الأرض مع تماوجاته، تتفاعل مع سيخه الحلزوني، يشبه غوريللا في وثباته، يرفع السيخ بساعده القوي، يميل بشكل ملحوظ، فتخرج من أجوائه قوى مغناطيسية تتوه فيها ملامحه الحادة مع الجسم الأصلي للسيخ، كانت حركاته السريعة الخاطفة تُعطيه بُعدا أسطوريا، هو المعوق غير المكتمل، يخافه أصحاب الأقدام التي تدب الأرض.

ضحك تادرس على جدك أو ضحك جدك علينا، فلم تأت سيرة من قريب أو من بعيد عن تلك الفترة التي طُرد فيها تادرس منذ واقعة "دميانة" حتى عاد مرة أخرى منظفا للأسماك في سوق العبور. هل ترك هذه المساحة فارغة كي يشعل تصوراتنا ويطلق لخيالنا العنان، وربما لم يقصد ذلك. ترى ماذا يمكن أن يكون قد حدث لتادرس في هذه المرحلة المهمة من شريط حياته؟ ولماذا لم تقترب نهاية الحكاية من الشكل التقليدي الذي نراه غالبا في التليفزيون أو في حكاوي جدتك، كانت تُضفر كل الخيوط في النهاية لتصنع من ذلك النسيج المقصود حكمة؟ لماذا لم يأخذ

تادرس حقه من عازر وأخويه الآخرين؟ كيف صمت على سلب ميراثه، وكيف لم يصرخ في وجه أخيه الجائر؟

ربك والحق، لقد تُهت في هذه المسألة، تخيلت مرة أن تادرس فعل بدميانة، وإلا لماذا صمت؟ ولماذا صمتتْ؟ أعود مرة أخرى وأقول لو وقعت الواقعة بالفعل، فبأي وجه سيجلس تادرس بجوار محلات الأسماك التي يملكها إخوته استعدادا للمطالبة بحقه المهضوم؟

أقف ضد هذا الرأي عندما أتذكر أن تادرس محا وشمًا كان يزين عضلاته، لمن كان هذا الوشم؟ قرأت في كتاب لا أذكر اسمه أن هناك سيناريو عظيمًا سقط من السماء نقوم كلنا بتمثيله، لكن كل واحد منّا هو المُخرج لنفسه. على العموم سأنتهزها فرصة لتُكمل أنت الحكاية بما يروق لك، فربما كنتَ في وضعك الحالي تعرف أكثر مما نعرفه نحن بكثير.

أربعون

في هذه الأوقات كانت دور السينما شبه خالية، يقف شخص بكرش بارز وشعر مصبوغ ليتسول الزبائن، الحفلة التي كان متوسط الحضور فيها ألف شخص، لم تعد تتعدى على أكثر السيناريوهات تفاؤلا عشرة أفراد، كلهم من الصبية الذين لا يتعدون العشرين عاما. في هذه الأوقات بالذات، وعلى مقهى الخديوي كان يجلس الأستاذ مرشدي، بعد أن تنتهي مواعيد عمله في دار الكتب والوثائق.. يشرب قهوته السادة، ثم يسير ببطء نحو مكان "الأوردر". قبل التصوير يراجع ورق السيناريو جيدا، وبرغم ذلك لقد كان نسيانه أثناء التصوير يعطل الإنتاج بشكل شبه دائم، كان مشهورا بين أبناء "كار" السينما بأنه يمكن أن ينسى قدمه أو ذراعه ويأتي بدونهما، ظلت ألسنتهم تلوك حكايته الشهيرة، عندما نزل من شقته بالقميص الأبيض الناصع، ورابطة العنق الشيك على بنطلون ترنج وشبشب زنوبة. لم يلفت نظره لهذا الشكل الكاريكاتيري سوى عسكري مرور يقف في ميدان الأوبرا.

الأستاذ مرشدي ينسى، ولا يتذكر أنه ينسى، ذاكرته الضعيفة تتنازل عما حدث منذ دقائق، وتتذكر بقوة ما حدث في العام 1991، عندما أعلن المخرج "داود عبد السيد" عن مسابقة للوجوه الجديدة لتصوير فيلم "الكيت كات"، وقعت عين المخرج الكبير على مرشدي ليقوم بدور زوج "روايح" الخائب، وصاحب القصبا التي سيقودها لاحقا الشيخ حسني. لكن لسبب ما تراجع الأستاذ داود، وأعطى دوره لممثل آخر.

مرشدي الذي كان أقرب للمجاميع الصامتة منه إلى الممثل، قنع بذلك الدور الأصغر، سيجلس على المقهى ويرفع زجاجة بيرة في الهواء، ستتحرك الكاميرا وتمسح نظراته السكرانة، ستضمها لنظرات سكارى آخرين أثناء عملية المونتاج.

بعد ذلك بعامين بدأ نجم الأستاذ مرشدي يعلو، وبالتحديد منذ أن أتقن دوره في فيلم "جواز مرور". كان دورا صغيرا نسبيا، لا يتعدى الخمسة مشاهد، ردود الأفعال على أدائه كانت مُبشرة، بعد العرض الخاص للفيلم وصفه المخرج "عاطف الطيب" في حوار طويل بمجلة "المصور" أنه الممثل الوحيد في مصر الذي يمكنه التمثيل بقفاه.

بعد هذه المرحلة، أصبح الأستاذ مرشدي يشترط تحديد الأجر مقدّما، ويتحدث دون حرج عن وضع اسمه على الأفيش بشكل مناسب. لم يصدق محررو الصفحات الفنية أن النجم القادم كان

يعمل كومبارسا صامتا حتى قارب الثلاثين، جاءته الفرصة التي لا تأتي سوى مرة، دور شرير يزوّر" الباسبورتات" لبطل الفيلم.

أتقن الأستاذ مرشدي ال_ديع دور الشرير، كما لو أنه عاش كل عمره بين المجرمين وقتالين القَتلى، النظرة من عينه يتبعها المخرج بموسيقى تصويرية مؤثرة لتكمل الصورة المراد بثها في نفوس المشاهدين، تفوق على نفسه عندما جاءته الفرصة الذهبية في فيلم "طريق شرف" والذي أدى فيه دور شرف ببراعة أذهلت المخرج، وبعد أن أصبحت السيناريوهات تُرمى تحت قدميه، وينتظره المنتج ثلاثة أشهر كي يرد عليه، توقف الأستاذ مرشدي فجأة عن كل طموحاته السينمائية، واستعد لأن يعيد ترتيب أوراقه من جديد.

مشهد

من هم أصدقاؤك الآن يا يوسف؟ رجل عجوز انفلتت منه الحياة قبل أن تسعفه ذاكرته بصياغة وصية، أم امرأة شابة انفرطت مسْبحة عمرها عن طريق عملية قيصرية؟ تركتهم هناك، فى المدينة، يموتون كل يوم ألف مرة، وجئت أحيا معك، أكمل ما تبقّى في حضرتك، لو انسقت خلف ظنوني، لو خُفت من أن أقترب منك وأحكي لك، فلن يعرف أحدنا قبرا للآخر مهما كان يكن له الحب والتقدير.

هل تختلف صورتك الآن عن صور رفاقك، هل تتجمع مثلك الأطفال من جميع الأعمار؟ تصهرهم الأرض لتُشكل منهم مراحل حياة قادمة، مبهمة، هل تدخل مرغما الآن في عملية تدوير غامضة تُقسم على أثرها أنواع المخلوقات؟ تقول جدتك إن القطط تسبح ليلا في دنيا بشرية كاملة، تفهم من الناس نظراتهم وإيماءاتهم، تعرف فيما يفكرون قبل أن يمر على ألسنتهم.

وعندما يطلع النهار، يتحولون مرة أخرى إلى حيوانات، تداري سوءاها وتتسول فضلات البشر، هل ستختلط روحك بعد سنوات بقط أو كلب أو بقرة، بعد مئات السنين، هل يمكن أن تصير نخلة؟ تحبل كل عام بنهدين حمراوين من البلح، يقذفها الأطفال بالحصى الصغير ليخففوا من حمولتها. لم يتدرب الجزء المسئول عن العدم في وعيي جيدا، دائما تأتيني في الأحلام، صغيراً ورائعاً. ألم تكبر؟ هل يمكن أن يخرج من مجالك المغناطيسي كائنات أخرى لها نفس روحك، يتكوّن من أجوائك مخلوق قريب الشبه بك؟ كنت تنام أغلب الليالي فوق فخذي، تنعس فور أن أُداعب فروة رأسك، تذهب بانسيابية وطمأنينة إلى الفراغ، حيث يفتح وعيك خياله ليترك البوابات المحدودة، ويشغلك باحتمالات لا تنتهي، تصحو، تحكي لي الحكايات التي رأيتها في أحلامك، يحتار عقلك الصغير في فك طلاسمها. فأفسرها لك بما يتناسب وإدراكك.

ألن تعود؟ ما تبقى منّي لم يعد يصلح لتكملة المشوار، لقد أصبح أبوك ركاما من الأعضاء، أحاول الخروج من أحزاني، لكني أفشل، لا أستطيع أن أفعل مثلما فعل جدك، فبعد أن ظل يدفع ديون ليلة الشيخ عبدالباسط لأكثر من عام، أقنع نفسه بصحة ما فعل، بأن كلام تادرس ليلتها لم يكن صحيحا، وأن البيت "استبارك" بقدوم الشيخ عبدالباسط "الحقيقي" والدراويش

"نوّروا" الشارع كله، وشاف أحبابه الذين تفرقوا بين المحافظات، وفوق كل ذلك تعلّم جدك من صوف الخروف كيف يغزل بيده، وبعد أن نجحت الفكرة، اشترى صوفا مجذوذا لأغنام أخرى كثيرة، كان يُلقي به في الصالة، نجلس جميعنا "نمز" وهذا المز نوع من أنواع الخدمة المجانية لأهواء جدك، ننفش الصوف وننفض اشتباكاته حتى يصبح هشّا كغزل البنات، يضفره على "المغزلة"، مخروط خشبي أصبع في طول ملعقة، يلفها بيد ويستعدل الصوف الخام باليد الأخرى، كل نصف ساعة يطلب لنا شايا، ولنفسه شايا ومعسلا، نسج عن طريق هذه الخشبة الحلزونية، عددا لا بأس به من الأمتار، يكفي لتكتيف البيت عشرات المرات، أحبالا رفيعة يكومها على شكل كوّر كبيرة في حجم بطيخة، أربع كور حصيلة سهرنا لليالٍ طويلة، ومعنا جيراننا وأصحابنا الذين أوقعهم الحظ السيئ بين يدي جدك في أوقات "المز"، فلها معنًى واحد، ألاّ يلعبوا الكرة ولا يقذفوا النحلة، ولا يتباروا بالبلي الزجاجي الملون ولا يتفرجوا على التليفزيون. بالمشاركة المجانية أصبح عندنا حِمل من الصوف يمكنه أن يغطي عشرة أشخاص بالغين، أحتفظ به حتى الآن على سبيل التذكار.

كانت حياة جدك عفوية، يتعبد بغير انتظام، ولا يهتم بتعليق دار الإفتاء على أغلب الأحداث، يمد يده ويغلق التليفزيون أثناء الصلاة، يتحشرج صوته، يكح، يتعلق البلغم في حلقه، يدير

وجهه ويقذف به خلفه ثم يكمل صلاته. كان يسأل كثيرا في أمور الدين وفي نظراته دهشة طفل:

"ليه ربنا ماعملش في كل بلد كعبة عشان الناس يعرفوا يحجوا لها بسهولة؟".

اختار جدك ميدان العتبة ليقيموا فيه الكعبة المصرية، بعد أن اقترح إزالة كوبري الأزهر. ذكر هذا الاقتراح في مداخلة تليفونية لبرنامج "حياة ودين" الذي كانت تبثه القناة الأولى، فتصنّع مقدم البرنامج أن الخط قطع.

وجّه سؤالا آخر للشيخ أحمد مجاور إمام وخطيب مسجد "الحرية" المجاور:

"ما دام ربنا عارف اللي ح نعمله قبل ما نعمله. وهوّ اللي كاتبه علينا. يبقى ليه بقى ح يعذبنا ما دام من الأساس هوّ اللي كاتبهولنا؟ وليه نزّلنا الدنيا الغبرا دي، ما دام كان ممكن يخلينا في الجنة؟".

اصطنع الشيخ أحمد الصبر قليلا، أخذ يشرح لجدك بترو..

كيف خلق الله الأرض في ستة أيام، ثم كيف استوى على العرش. ولماذا يجب علينا طاعته، وهو الذي لو أرادها حطاما لفركها في لحظة بين أصابعه، لكنه رحمن رحيم.

يبدو أن إجابة الشيخ أحمد لم ترُق لجدك، فسأله سؤالا آخر:

"مش هوّ علينا قادر.. يبقى أكيد عارف إننا هنسأل. ولاّ ربنا يحب الأغبيا اللي مابيسألوش عن حاجة أبدا. تبقى مصيبة لو هما دول اللى ح يدخلوا الجنة؟".

هبّ الشيخ فيه متهما إياه بالجهل والكفر. استغاث جدُّك برجال آخرين من تجهم الشيخ أحمد، صُدم عندما أيدوا جميعا الشيخ وأدانوه هو، أصبح ككائن غريب عن بيئته، لم يجاهر منذ ذلك اليوم لأحد بما يدور في نفسه، أصبح أهون عليه العذاب من أن يشك الناس في إيمانه.

"هوّ انا ليه كل ما اتكلم يسكّتوني؟ مش معقول أبقى في النار دنيا وآخرة!".

يسأل جدك نفسه ولا مجيب:

"الناس اللي بيسهروا الليل وهما نايمين في أحضان الرقّاصات، وبعد كده يبنوا جامع حايدخلوا الجنة. واحنا لو فاتنا ركعتين سُنة تبقى سنتنا سودا. وبعدين هوّ مين آدم ده اللي احنا فاكرينه أبونا؟ وبنقول عليه سيدنا. ماهو مفيش أب يجيب الفقر لولاده. مش هوه سبب كل المصايب اللي احنا فيها؟".

ظل الناس منقسمين حول تقييمه، حتى جاء يوم من أيام الجمعة، كان جدك يجلس ويستمع لخطبة الشيخ أحمد مجاور، استوقفته كلمة، أو بالأدق وقفتْ في زوره، الشيخ أحمد أخذته النشوة، وهو يصيح:

"كل الناس كانت بتحب سيدنا عمر.. كل الدنيا كانت مؤمنة بكلام سيدنا عمر.. كان بينام تحت شجرة زي أي واحد.. ولا حراسة ولا يحزنون".

انطلق جدك كصفارة إنذار في فمِ مُختلٍ:

"أُمّال اتقتل ليه؟".

رفع الشيخ أحمد جلبابه من على الأرض بسرعة، طوى أطرافه تحت كرشه الكبير، نزل من على المنبر مهرولا، جرى في اتجاهه وهو يتخطى مناكب الجالسين..

"اطردوا الكافر ده من بيت ربنا".

قال الشيخ أحمد، فبنىَ بكلماته حائطا طويلا من البشر المستفسرين، سرعان ما تحولوا بعد ثوانٍ إلى مستنكرين.

سرتْ إشاعة في الشارع كله فحواها أن جدك أصبح منعدم الاتزان تجاه الدين، لابد سيحتاج إلى رجل جليل ليرد له دينه، لكنه رفض أن يفعلها:

"أنا ماخسرتش حاجة عشان أردّها".

قال جدك، ففسر الناس مقولته على أنها كُفر بيِّن، بدأ أصدقاؤه في الحد من زيارته، ثم قاطعوه شيئا فشيئا حتى أصبح شبه وحيد، لم يشغله ذلك في بادئ الأمر، لكنه مع مرور الوقت بدا عليه الإرهاق. في الأيام التالية تغير لون بشرته ونقص وزنه كثيرا، لم يعد يأكل الترمس على الحمص ولا يدخن الجوزة،

انصرف عنها لصالح السجائر "الكيلوباترا" أصبح يدخن بشراهة، علبتين أو ثلاثا في اليوم الواحد، اشتكى كثيرا لجدتك أنه لم يعد يرَ أحدا في المنام، لم يعد يحلم، اشتكى حتى أنهكته الشكوى، فسّر ذلك بعد تكراره تفسيرا غريبا، ما كان يراه في الحلم ولا يستطيع أن يبوح به. أصبح يتحدث عنه ولا يستطيع أن يحلم به.

ارتاح لهذا التفسير، ليس مهما أن يكون على صواب أو على خطأ، لكن المهم هو التفسير، التبرير يريح، يعطي أهمية كبيرة لظواهر تافهة، أصبح أيضا لا يشم الأشياء، يلطم أنفه الكبير بعنف ويقول:

"حجم عَلى الفاضي".

تنازلت رغباته شيئا فشيئا، أصبح لا يأكل بشهية، لا يسب جدتك بسبب تربيتها للطيور ولا لاحتفاظها بالكراكيب، ولا لتكسيرها للأكواب التي يشرب فيها تادرس الشاي.

بعد أيام ذهبت جدتك دون علمه وهي تحمل لباسه ملفوفا في ورقة جرائد إلى رجل أوصاها المقربون بالذهاب إليه من دون ذكر اسمه. قال لها بعد تفحصه اللباس جيدا، إن صاحبه لا يمكن أن يكون طبيعيا، فالأثر يقول ذلك.

كانت كلمات الرجل تتطابق مع ما يمر على خيال جدتك، .بالفعل كان جسده يتسارع في النقصان. وقال لها أيضا إن المخلوقات التي تآمرت عليه كثيرة ولا يمكنه الفكاك منها إلا بمعجزة. أعطاها مسحوقا في كيس شفاف وطلب منها أن تغليه وتسقيه إياه على الريق ثلاثًا.

انطلقت جدتك للشارع كالتائهة، لا ترى أعمدة الإنارة، ولا الأسفلت ولا الناس. لا ترى سوى اللباس وصاحبه. لم تكن تتخيل أن تعيش وحيدة، عشرات الأفكار تقاذفت لعقلها بلا رابط، كفنه الذي اشتراه العام قبل الماضي عندما مات أحد الجيران، كان يصغره بعشرين عاما، أبىَ أن يستيقظ، هكذا بمنتهى البساطة، فصَّل جدك له كفنا بعد ذلك بيوم واحد، الدنيا ليست مضمونة، ولم تعد تعتمد على تقدم السن.

"كان لازم يعني يسأل الشيخ أحمد. كان لازم يفكر في الحاجات دي؟"

تتذكر جدتك بعد ما حدث تحذيرها من ذلك الشبح المسمى بتادرس وتقول لي:

"لو كان تادرس بتاعه ده عطس يجي يقول لي تادرس عطس".

تكلم جدتك نفسها وهي عائدة؟ وتتذكر كلمات الشيخ أحمد "إن هناك أشياء إن تُبْد لكم يا ويلكم" وهذا ما حدث

لجدك، أصبح يشبه في تصرفاته ونظراته رجلا اسمه "السيد" كان نصف مخبول، ودائما يعلق على كتفه جرابا كبيرا متسخا يشبه "المخلة"، ربما هو الوحيد الذي لا يخشى الوباء. كان رأسه كبيرا، وخط مخاط دائم النزول من فتحتي أنفه، يأتي ليأخذ رغيفا أو يشحت قميصا، يتكلم بصعوبة ولا يفهم أحد أغلب ما يقول. ينظر ويتأمل أكثر مما يفصح ويتكلم، أصبح جدك مثله،يتكلم بصعوبة ويحملق فينا جميعا وكأنه يتعرف علينا من جديد، اقتربت روحه من روح السيد العبيط، لكن الفرق بينه وبين السيد أن الأخير كان سمينا وله لُغد يتدلى عند رقبته، وفخذاه كأنهما جذع شجرة كافور. انطلقت إشاعة تخصه ذات يوم، لا يعرف أحد لها مصدرا، السيد العبيط يمتلك عضوا خرافيا. تاهت الواصفة بين النساء جميعا، فمن رأت بالطبع لن يقول الناس إنها فقط رأت. إشاعة مضادة انطلقت لتختفي على أثرها الأولى، السيد العبيط ليس له في الحريم، ولا يعرف أصلا كيف تعمل هذه الآلة الاسطوانية، وفي أي مكان يمكنه أن يضعها.

لو لم تكن بلغتَ الحُلم لما كان لي أن أحدثك في مثل هذه المسائل يا يوسف، لكنني أعلم تماما أنك الآن قد بلغت، أربعة عشر عاما ليست بالسن القليلة. وأنا في مثل سنك كنت أنام كثيرا، مرتين وأحيانا ثلاث مرات في اليوم، أصحو غالبا مبلولا، مثل هذه الأحلام كانت هي دخولي الأول لعالم النساء، كنت أحلم في البدايات بامرأة تكبرني بسنوات عديدة لتعلمني كيف

الفعل، لا أتأكد من ملامستي لها، كل ما أتأكد منه أنني أصحو من نومي جميلا دون أن أنظر في مرآة، أترك سريري، أدخل الحمام وأنا نصف طائر. امرأة أسطورية كنت أراها دائما تقف بجوار "الكومدينو" تبتسم قبل أن تصعد للسرير. قريبة الشبه بأمك وتصغرني مثلها بعشرة أعوام، بشكل ما كان يمكنها أن تصبح ابنتي، كانت في السابعة عشرة وكنت في السابعة والعشرين، في الليلة الأولى لم نكن نعرف عن علاقتنا الجديدة الكثير، لم يعرف أحدنا ما يجب عليه فعله بالضبط، كنا نبحث عن الكلمة المفتاح، الكلمة التي يحتاجها الآخر تماما، لم أجد من الكلمات الجريئة التي أخذ مني ترتيبها أسبوعا كاملا ما يناسب براءهما، قلت لها بلا ترتيب:

"نوّرتِ بيتك".

ثم صلينا ركعتين شكرا، لم أشعر وقتها أنني مع الله، بل كنت مع شيئين لا ثالث لهما، مع ما كنت أرتبه وأنوي فعله، ومع كلمات جدك التي نقلها عن تادرس. كلمات ظلت طوال الليلة تطن في أذني قوية بصوته، وكأنه يريد أن يورثني أنا الآخر إياها:

"اسمع يا ابني. أنواع الهبال أربعة".

أول هبال أنك تنزل السوق وما فيش في جيبك مال..

وتاني هبال تنزل خناقة وما فيش ورا ضهرك رجال..

أما تالت هبال أنك تبحر بالمركب من غير حبال..

ثم رابع هبال أنك تطلق مراتك وانت مخلّف منها عيال".

"ولا الضالين"

"قل هو الله أحد"

سأجاريها بنعومة ولا داعى لذكر كلمات جريئة تفسد بسببها الليلة..

"الله الصمد"

لا توجد ثلاجة والجو نار. المياه تنزل من الحنفية تغلي..

"لم يلد ولم يولد"

أنا أعلم كل شيء عن البدايات، لكنني لا أعلم شيئا عن طريقة الانتهاء من هذه العملية اللذيذة المعقدة..

"ولم يكن له كفوا أحد"

بعد الانتهاء من الصلاة التي كان الخشوع فيها غائبا، فعلت ما جادت به أحاسيس اللحظة. بعد أن ابتلت ملابسها تلمستْ السائل اللزج النازل على ركبتيها وهي تقول:

"دول بيضحكوا علينا. هو فين الجنين ده؟".

منذ ذلك اليوم أصبحت أعاملها كطفلة، وكثيرا ما كانت تستحسن ذلك.

عادت جدتك تحمل في يدها اللباس، ذبحت زوجين حمام، وضعتهما في قدر كبير، حمّرت الفريك وخللت الباذنجان، جهزت كل شيء.. انتظرته.. تأخر عن ميعاده قليلا. كانت تدعو في صلواها باللطف في القضاء أن يموت جدك ميتة شريفة، كانت تسمع في النشرات وعلى الألسنة عن أنواع مهينة من الموت، شخص تسحله سيارة نقل بمقطورة، ينغرس لحمه بين حديدها الغليظ، أو تغرق به سفينة ويكون غذاء للسمك، أو يموت كافرا والعياذ بالله، فهذه فضيحة لا تُغتفر، لكن الله حليم، سُتحل المسألة كلها بإذن الله قبل أن توصم العائلة كلها بوصمة لا يمحوها الزمن.

صور

"أهم شيء في الفيلم الورق"

قال المخرج، بينما الأستاذ مرشدي يستسلم ليد ماكيير عجوز، يلطخ وجهه بمساحيق وألوان تجعله كالخارج لتوه من خناقة كبيرة، لفتت الجملة نظره، لماذا لا يكتب الأستاذ مرشدي السيناريو بنفسه، فهو يمتلك خبرات طويلة، الحياة هي أعظم خبرة. قال لنفسه بينما تنفعل ملامحه مع أفكاره فيعوق عمل الماكيير العجوز، جاءته الفكرة وأقنع نفسه بأنه مشروع كاتب فذ، وككل من يتوسم في نفسه أن يصبح كاتبا، أصبح يحمل دائما في جيبه نوتة لتدوين الملاحظات والتعليقات. يجمع ما يكتبه من المشاهدات اليومية، شخص يسب آخر، مشادة على مقهى، متابعة ثرثرة لرجل متكوم بجوار حائط، تعبيرات الناس في زحام الأتوبيسات والشوارع.

بعد عدة أيام من جمع هذه الملاحظات، رأى أنها لا تناسب شيئا في نفسه، بدأ يبحث بجدية عن موضوع يستقي منه فكرته

الرئيسية التي سيبدأ بها مشروعه، كانت هناك حزم من الأوراق، مكدسة فوق رف مغبر في مكتبته الصغيرة، حاول أن يكون بذرة لسيناريست ناجح، ربما ستفلح محاولاته ذات مرة، بلع الأستاذ مرشدي حبة من "الميريتينوز" وجلس يفكر في بداية قوية تناسب طموحاته السينمائية.

طقوس

اليوم أتممتُ أربعين عاما، ليس هذا بالشيء المهم، فالأرض التي تطوينا بعناد وإصرار تسخر من جميع حساباتنا، ما معنى أن أكمل أربعين أو أكمل مئة؟ أو أن أذهب مبكرا في السابعة، مثلك يا يوسف؟ كلها حسابات سخيفة، ماذا يعني أنني أصبحت كبيرا، هل ليحترمني الناس مثلا؟ ليس هذا بسبب، فما أكثر قليلي القيمة من كبار السن. هل لأضفي على نفسي مسحة من الوقار، ليس هذا أيضا بسبب، فالجميع يسير بدأب نحو منحة أكيده، الموت، تقدم السن يعني بشكل ما أن المحطات القادمة أصبحت قليلة، وأن المحطة الأخيرة آتية لا محالة، فلماذا تذكّره؟

ليس هذا بالأمر المهم، ما دام الرجل الطويل يرش لك المكان بصبر، فمن المفترض أن يكون كل شيء على ما يرام.. اقتربتُ منه لأعرف طبيعة عمله، كان يملأ دلو متسخا ويرش منه المكان

بشكل عشوائي، استوقفته وسألته، دار بيننا حديث لأكثر من ساعة.

كان يمتلك قطعة أرض بجوار مرقدك الصغير، يزرعها بأنواع كثيرة من الخضراوات، لا يفصل بين بيتك الصغير وأرض الرجل شيء، وكأنه يستضيفكم في ملكه. كيف يأمن لما يأكل من على السطح وأنت ورفاقك ترقدون أسفل ما يزرع، ألم يتوجس وهو يقضم خيارة فيجد بين بذورها ضرس إنسان؟

بعد قليل سأعود لأمارس طقوس الحياة، أحاول أن أبحث بين كلماتي القليلة عن أحاسيس كثيرة تغري مخيلتي، أشتهي الدجاج الآن، كأنني لم أذقه منذ سنوات.

هل يجوز أن أقف أمام شاهدك وأشتهي دجاجا محمّرا؟ أطلب مرقة بالليمون وخبزا بلديا، وبينما يضع الرجل الطلبات أفكر في قيمة البقشيش الذي سأقدمه له بعد أن يعطيني فاتورة بالحساب، سأذهب لأمارس ما كنت أمارسه، أجلس على مكتبي القديم، أنفق في ترميم المخطوطات اليوم كله، أبذل مجهودا كبيرا للاحتفاظ بما تركه الأولون..فبأي أثر منا سوف يحتفظ القادمون؟

يوسف..

لن أتمكن من رؤيتك إلا عن طريق التذكر والصور. أغوص في ملامحك التي تشكلت من نسيجي وتكونت من روحي، أتابع ضحكتك التي كانت مجزّأة بين أنفاسك الصغيرة المتلاحقة.

وجودك الآن أمامي مكتملا يحدد كل شيء بوضوح، أنت تسكن استراحات القلب، تجلس في شق غاطس لا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق الأحاسيس، جزء لا أجرؤ على استئصاله من مسارات الخيال، أحلم طوال الوقت بعودتك الظافرة على حصان خشبي يشبه ذلك الذي صنعه لك جدك من حطام كرسي قديم، تعود ماشيا أو زاحفا أو طائرا، تتخطى المدخل الصغير، تتعثر في طرف السجادة، وعندما تقع تتظاهر بأنك تلعب، بأن وقعتك جاءت برغبة منك كي تداري كسوفك، تخترع موضوعا مصطنعا لتخفي حرجك، المهم أنك تعود، ترتمي بين أحضاني، تتهدج أنفاسك، تتلجلج كلماتك، أقبّل كفك الصغير، أداعب فروة رأسك، تتغلغل أصابعي بين شعرك، تنام على كتفي فأحملك إلى السرير، أفاجأ بعد أن أضعك على سريرك بأنك مستيقظ، تمثل النوم.

انتهى الرجل فارع الطول من رش المكان، غسل الأشجار، كنس ورقها الجاف. ثم بدأ في الإمساك بالدلو في يد، وإزاحة الماء براحة يده الأخرى بشكل آلي. المقرئ العجوز مازال جالسا يتلو بسرعة، كلما لمحني أنظر إليه كان يبالغ فيما يفعل.

وكان نفس الرجل، عندما أتى جدك في صندوق شبه خال، لم تفتح له السماء أبوابها كما فعلت مع مرشدي، لم يشيدوا له

مقاما، لكنهم رفعوه من الصندوق كمرتبة سيئة التنجيد تكوم قُطنها في ركن واحد.

تحوّل في أواخر أيامه لما يشبه ظِل بني آدم، جسده الذي كان يدب الأرض كوتد، أصبح ضعيفا ومهزوزا، بالكاد يظهر له حيز، يجلس وحيدا، يبكي، كان لبكائه مذاقا مرا، يبحث في مخيلته عن ذكريات مؤلمة، لا يبحث عما يمكن أن يُضحكه، فلا تظهر بسهولة أسنانه الكبيرة المفلوجة التي كانت على الدوام خجلى من الانكشاف، فقط يقطر ابتساماته القليلة على الزمن الطويل، كان يجلس بيننا أيام أن كان موقعد وسطا بين شاب وعجوز، يغني المواويل ويسرد المواقف والحكايات، يُضحكنا دون أن يضحك:

"يا عين يا ليل ماعرفش أكدب. والضفدعة شايله المركب. وابو فصادة حارسها. والقط الأعمى ريّسها".

بعد أن نضحك ننام. أصحو قرب الفجر فأجده واقفا أمام الشبّاك في عز البرد، تخرج كلماته ضعيفة وبطيئة، يصاحبها دخان زفيره الطالع من فمه وفتحتَي أنفه:

الأوّلة لما نطقت دورت على احبابي..

والتانية لما فهمت شغلتني أسبابي..

والتالتة لما عجَزت قلت ده منابي..

والرابعة دخلت القبر دورت على بابي..

والخامسة وقفت في صف ادوني فيه كتابي..

والسادسة لما قريته قلت مين يحمل عني عذابي".

هل ما أتذكره هذا من تأليف جدك. أم أنه من مُحصلة جلساته الكثيرة مع تادرس؟

نفق

سبع ساعات قضاها تادرس في البدروم، خرج بعدها متربا ومغبرا، تُطوق وجهه وطاقيته البُنية خيوطُ عنكبوت سوداء.

سأل أحد المارة عن المسجد الكبير، والذي شيده عمرو بن العاص بالتزامن مع مسجده الشهير بمصر القديمة، كان قريبا من سرادق العزاء، بعد أقل من مئتي متر من كنيسة مارجرجس.

ذهب تادرس للميضأة، توضأ، أو بالأدق اغتسل من أتربته، لم يقف خلف الإمام، وقف كما التائه، يكلم نفسه بصوت كالهمهمة، لا يرى في الكلمات شفاء، ولا يدري ما يتوجب عليه فعله، أمسك بحصى كان ملقى أكواما بجواره، ظل يقذفه أمامه بشكل عفوي، سقطت إحداها في حفرة تظهر حافتها من بعيد، سمع بعد ذلك صوت ارتطام ضعيف ومكتوم، نظر تادرس إلى السماء من بين ثقوب "التعريشة" التي تظلل على ساحة المسجد، بعد الأذان رأى في ركن قصي رجلا عجوزا يقرأ القرآن،

يستلهم الأنغام وتتجلى أحباله الصوتية أثناء القراءة، يتغلغل حسه في المشاعر والوجدان، يصدر أصواتا يبحث عنها تادرس، فلا يجد سوى صداها الذي يختصره الخشوع وتؤكده الرهبة ويمنحه الجلال.

"قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ".

صوت الرجل عذب وشجي، سرح تادرس مع البناء القديم للمسجد، تأمل المشربيات الخشبية والأقبية الطينية القديمة والفرش الأخضر الممتد ثم عاود الاستماع للمقرئ مرة أخرى.

"وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ".

رآه الرجل الذي كان يؤم المصلين متزويا وينظر للأرض، فتقدم إليه تسبقه يده، صافحه أولا ثم سأله:

"إيه يا سيدي. مصليتش معانا جماعة ليه؟".

ارتبك تادرس وتاهت الكلمات من على لسانه:

"أصلي.. أنا مسيحي يا شيخ".

سَلَتَ الرجل يده من يد تادرس، ثم سرعان ما انتبه للحرج فقال:

"يا سيدي.. مسيحي ولا مسلم. كلنا عباد الله. بس انت مالك كده؟ حاسس ان شكلك متضايق وعايز تفضفض وتقول حاجات كتير يا بني؟".

وهنا بدأ تادرس فى الحكي، نفس الحكاية، بحذافيرها، كما وردت في خياله، عازر ودميانة وعمه فارس، بلدته التي تركها، وساقه التي فقدها، تنقله بين الخرابات، سوق العبور و"أورمة" تنظيف الأسماك، كل شيء، كل شيء، ارتاح من همّ كان يؤرقه، تملكت منه شهوة الاعتراف، وتملكت من الشيخ شهوة الوعظ.

أخرج الرجل مسبحته وعلقها في معصمه، أخذ يحدثه عن الصبر، وأن الحق دائما يعود لأصحابه، فإن لم يبلغ حقه في دنياه.. لابد سيختاره هو في الدار الآخرة. وربنا اسمه الحق يا سيدي. ماتزعلش على اللي فاتك وخليك مع الله.

ابتلعت الحكاية من فرط طولها الوقت الذي بين المغرب والعشاء، استأذن الرجل من تادرس وهو يتبسم.

اقترب تادرس من الحفرة التي ألقى فيها الحصى، فرأى شيئا أمامه كالبدروم، تخطى درجتي سلم ثم استهوته اللعبة، أكمل نزول السلالم الخشبية القديمة حتى وصل لحفرة كبيرة تشبه بئرا قديمة، فوهتها كبيرة، مقعرة ومسحوبة على شكل قرطاس، رمى جسده الثقيل داخل الحفرة، أمسك حرف الفوهة بقبضتيه القويتين، ثم ترك جسده ينساب تدريجيا حتى استقر داخل

التجويف، حُشرت ذراعاه لأسفل فاستحال تراجعه، قلص ما يمكن من أمعائه وصدره حتى اجتاز قعر القرطاس.

تلمست قدمه في الظلام درجة سلم صغيرة، داس عليها بعد أن أزاح التراب المتراكم فوقها، رأى بعدها درجة أخرى، ففعل فيها مثلما فعل في الأولى، أخذ يعد الدرجات وهو يتخطاها.. أربعة وخمسون درجة سلم، عبرها بصبر وروية، ثم جلس في منتصف النفق يبكي:

"طريق العدرا ملفة ملفة..

و ان عطاني ربي لاروحها بزفة..

طريق العدرا ملفات ملفات..

و ان عطاني ربي لاروحها بزفات"

بللت دموعه جلابيته الرمادية، اختلطت بعرقه، شكّلا عجينة مع الغبار المتطاير من حوله، كان الظلام مطبقا، لم يرَ تادرس كف يده، لكنه تحسس درج السلم بيديه وقدميه وبعض من خياله.

"يا رب ما اموت ولا يدفنوني ..

إلا اما اشوف المسيح واملّي عيوني..

يا رب ما اموت ولا يسيروا بيّه..

إلا اما اشوف المسيح وامحي الخطية"

وصل تادرس للقرطاس الثاني الذي يقع عند طرف النفق في الجهة الأخرى، هلل كما الأطفال وأخذ يصيح:

"المحبة يا تادرس. المحبة فيها الخلاص".

تسلق حتى وصل للجزء الواسع من القرطاس الآخر، رفع جسده بعزم حديدي، كان قد بلغ به الإنهاك غايته، سحبته ذراعاه للفوهة، جلس قرابة الساعة على حافتها، مسح وجهه بكم جلبابه ثم خرج فرأى الطرف الآخر.

قبة كبيرة ومنقوشة على الطراز القبطي القديم، يتدلى منها جترير تُرقطه بقع ضوء تشبه حبات نور تسبح في الفضاء، ينتهي بفانوس كبير ومجوف، تفوح منه رائحة جذابة، ويتوسطه قنديل بإضاءة صفراء هادئة لا تتوهّج ولا تخبو، وترانيم ناعمة سابحة في ملكوت من الطمأنينة والصفاء، وقسّ بدينٌ يحمل مبخرة صغيرة تفوح منها أدخنة مُعطرة، خرج تادرس على هذا المنظر كالخارج من قبر، استمع لصوت مناجاة متقطعة تصدر من الداخل:

"استمع إليّ يا الله

واصغ إلى صلاتي

من أقاصي الأرض صرختُ إليك

عندما ضجر قلبي".

القس العجوز يحمل مبخرة في يد، وفي يده الأخرى يحمل صليب من الخشب، أقبل ببطء، تضيء جلبابه الأسود حصيرة

شمسية منمنمة، آتية من نوافذ مربعة وكبيرة تتقاطع فيها الأخشاب، فتصور صلبانا مختلفة الأحجام والأشكال. أصغى تادرس فاستمع:

"يا واهب الحياة

إننا نحيا لأجلك. ونموت لأجلك

ونجعل محبة الناس جميعا داخل محبتك

اننا نعيش لك لأنك خلقتنا

وهذه الحياة عربون للحياة الأبدية

نعيش للرب. لكي نستحق أن نعيش معه في السماء".

صافحه القس بوجه بشوش، أخذه من يده كما الطفل، وطاف به أركان الكنيسة الكبيرة وهو يقول:

"استنيتك كتير يا ولدي".

ابتسم تادرس وزال عنه كل ما علق به، تنازلت ذاكرته عما احتوته من أشخاص ومن أحداث، أصبح نقيا كما لو أنه قد وُلد الآن، سأل القس سؤالا سريعا، انطلقت الكلمات بدون إعداد أو ترتيب:

"ليه يا ابونا مخبين النفق ده عن الناس. هم في أشد الاحتياج له دلوقت؟"

رد القس بعد أن توقفت يده عن الحومان بالمبخرة:

"خايفين من الحكومة يا ولدي. لو عرفتْ طريق النفق حتعمل كردون على المنطقة كلها. وحيخلوا الجامع والكنيسة أثر للسياح مش مكان للعبادة. من زمان أوي. من أيام المقدس مرقص والشيخ نصرالدين. وهم اتفقوا على ردم النفق، وأنا والشيخ عبدالله ماشيين على العهد يا ولدي".

رد تادرس بعد فترة صمت، وكأنه يستوعب كلمات الرجل:

"الدنيا مبقاش فيها أمان يا بونا. أهلي راحوا. وصاحبي كمان راح".

تنهد القس فاهتز كرشه قليلا من تحت السواد، ثم ابتسم وقال:

"اتصالح مع نَفْسك يا ولدي. وعيش مع الرب، ولا تنشغل عن القوى الباقية في السما بالضعيف والفاني اللي تاكلَه الأرض".

القس لا يزال يمسك بيده، أفلت تادرس يده وتأمل ساعته، ثم هرول في اتجاه الخروج، وهو يقول بصوت تغلب عليه العصبية:

"العزا.. العزا".

أخذ يثب ويميل بجانب واحد، لا تعطله قدمه البديلة، في ثوانٍ خاطفة خرج، لم يلتفت للقس الذي تاهت ملامحه الصغيرة وسط سواد لحيته وجلبابه وهو ينادي:

"استنّى يا ولدي. مش حتحضر معانا القداس؟" .

موت

كأسد عجوز، انزوى جدك في بيت أخيه الكبير، أقام في غرفة من الست غرف، شلّته فكرة حتمية الموت تماما، محتْ غيرها من الأفكار، وظلت واقفة بشموخ، تُخرج له لسانها كلما أراد تغيير المسار.

بعد أن اشتدت معارك جدكَ الكلامية مع الشيخ أحمد، سافر إلى قريته، وفي بيت أخيه الكبير أقام..

دوّار كبير به ست غرف، ومدخل طويل كردهة سجن.. عاد من جديد يلبس الصديري والجلباب ذا الكم الواسع وفتحة الصدر الكبيرة.

اتصل بي عمي الكبير، بصوت متحشرج، قال:

"أبوك عايز يشوفك".

كانت الترجمة الحَرفية لهذه الجملة مع بعض الذكاء، تقول:

"أبوك مات".

لم أفكر في الأمر كثيرا.. في الميكروباص، وبينما أمر على حقول خضراء تتوسطها بيوت صغيرة كبُقع في ثوب، رأيت شريط حياة جدك منذ بدأ وعيي في التشكل. ستحول ملامحه تلقائيا إلى قناع سبقه إلى مسرح الفناء أقنعة كثيرة، ستُشكل الملامح الجديدة عائلة واحدة، دون اعتبارات لقرابة أو صلات، سيمثلون جميعا مسرحية كبيرة، تتقاطع فصولها في أحلامنا، ينصحوننا ويحذروننا، يأتون إلينا ونحن نائمون أحيانا لأنه لا يوجد شيء آخر يفعلونه.

دخلت بطيئا، أنتظر أن يصرخ أحد في وجهي، أو يتسلل إليَّ صوت القرآن، فقد أصبح جدك في منزلة من لن أراهم بعد ذلك أبدا. كثير من الأقارب يجلسون بالخارج يطاردهم النعاس. شخص أخرس هو أول من قابلني، ملامحه طيبة ومستكينة. أخذ يشيح بيديه بينما عيناه حمراوان. دخلتُ، جدك نائم على سرير كان في الأصل كنبتين، يبدو أن التزاوج بينهما لضرورة اقتضتها الحاجة. رأيته وكأني لا أعرفه، كأن زلزالا يصدّع جسده، يلفه برعشة وانتفاضة لم أرَ مثلها من قبل، يشهق شهقات متتابعة، يشخر بقوة، يزأر، يرتفع جذعه على أثرها لأعلى، ثم يهمد ويستكين في عالمه الذي لا نراه.

يقولون إن الروح شيء هلامي، شفافة كالماء، على عكس ذلك رأيت جدك، بطنه متحجر، يتألم وحده، يسقط فكه على آخر اتساع، ثم يُغلق مواربا، تكرر ذلك مرات، كما لو كان يريد إخراج صخرة من فمه. كان منظره على عكس جدتك تماما عند ساعات الانفصال، في أحد الصباحات أبت أن تصحو. فقط أبت. فجهّزوها سريعا، في أقل من ثلاث ساعات، تخففت من كل متعلقاتها، فبدأت رحلتها بانسيابية. لم يبق من رائحتها سوى مصحف مركون على حامل خشبي. كما هو مفتوح دائما على سورة يوسف، كانت تتجول بينها وبين سورة تبارك طوال ليالي رمضان.

رأيتُ جدّك يشهق شهقات متلاحقة، ثم يزأر، وأنظر لعينه الغائمة، لا يراني، لحظة المتعة الحقيقية بالحياة هي لحظة فراقها، تكون كثيفة ومُحملة بكل ما فات، تختصر كل الأمنيات في وصية، وتتحول كل الأحلام لفُرصة في الكلام، ما تبقّى بعد ذلك لن يخرج عن كونه حلمًا واحدا طويلا.

كان ينتفض بشدة، وكأن مخلوقات لا نراها تفاوضه، تريد خلع قلبه من مكانه. يحرس سريره أربعة نسوة، تجلس واحدة عن يمينه، تحمل في يدها كوبا به ماء، تغمس ملعقة في يدها الأخرى ثم تبلل بها شفتيه المطْبَقتين. لسانه الخارج على جانب فمه يلفظ كل الماء، يرتعش بين شهقة وأخرى، يتمتم بحشرجات تشبه قراءة لتعاويذ، يجاهد لسانه ليخرج من رَحِم الخرس، يفشل،

يعاود الكرّة، ثم يستكين، يداه هامدتين، ساكنتين إلى جواره لا يستطيع رفعهما، تتشنج أصابعه ثم تهمد بعد محاولات بائسة للإمساك بشيء ما. النسوة الأربع يرتدين ملابس قاتمة ومتشابهة، وكأنها قُدت من نفس الثوب، وملامحهن أيضا، كأنها تشكلت من نفس العجينة، أكبرهن سنا تحمل منشفة وتمسح ما يفيض عن بلل شفتيه.

جدك الذي لم أره منذ شهرين فقط، كنت كمن لم أره منذ عشرين عاما، بل كأنني لا أعرفه، فمه يرتعش، أطرافه واهنة، عروق كثيرة خضراء تبرز عن سطح يده، لا يستطيع أن يتكلم، وذلك أكثر ما آلمني، جدك الذي لم يمل أحد من حكاياته أصبح أخرس، سقطت عمامته من على رأسه، ظهر عجزه كوحدة متكاملة في هذا المشهد الذي استوطن ذاكرتي وأبىَ أن يتركها أبدا. فمه بلا طقم الأسنان فارغ، صدغاه يقابلان بعضهما داخل التجويف، أنفه تتضرع للسماء بفتحتين بائستين دون جدوى، شعيراتهما لا تستحي أن تمرر مخاطا يترل ببطء، تمسحه السيدة الجالسة بالمنشفة قبل أن يصل لفمه.

وقفتُ أمامه، نظرتُ في عينيه مرّة أخرى، لم تكونا تريان شيئا، تائهتان لا تحددان مقصدا كعينيّ مولود، طيبتين، وديعتين، باهتتين، كأن سحابة تمر بهما.. صلعته الخفيفة تتقلب على وسادة متسخة وعالية، يهتز أنبوب "الكالونة" الصغير في معصمه. دخل عمي الكبير، نظر إلى جدك نظرة خبير، رفع في يده سرنجة بعد

أن سحب بها نوعا من أنواع المسكنات، ضغط بإبهامه، فخرج بعض من سائلها عبر السن الدقيق، اقترب من عينيه، نظر إليهما نظرة حائرة، ثم قال:

"توكلنا على الله".

ضم الرجل الأخرس جدك، ثم جذبه فأصبح كالنائم على جنبه، تطوعت إحدى النساء بخلع لباسه عنه. غرس عمي الكبير الحقنة المسكنة في مؤخرته، لم يتوجع، أو يطلب أن يتركوه لحاله، لم يصدر صوتا سوى حشرجات وزفرات مكتومة، تخرج من أعماقه كأنها قرقعات، تصمت كل فترة قصيرة بنهاية، كذيل لآهات ضعيفة.

لم أصدق أن جدك لا يستطيع أن يعبّر عمّا يريده، لم يكن معنا، كان هناك، حيث التحرر من جميع الأشياء، يعافر جسده مع روحه من أجل عبور البوابة.

وعبر جدك البوابة.

جلست أتابع المارين أمامي في الشارع الصغير، كان مفترضا أن أنتظر تعليق الكلوبات ورص الكراسي، واستقبال الضيوف. جلست أنظر للغرفة التي انطلق منها إلى عالمه الجديد، شيء ما برق بجواري كشهاب، شيء لامع يضرب فيه كلوب ضعيف الإضاءة معلق على باب البيت الكبير، كان هو، بمنظره المرعب، رأيت ملامحه واضحة "ت ا د ر س".

ذلك الشبح الدائم، سحب ذيل جلبابه حتى لامس الأرض، عندما لاحظ تسلط نظر الجالسين على قدمه الحديدية.

عند ظهر اليوم التالي انتظر تادرس أمام مسجد عباد الرحمن، وبسرعة لا تتناسب مع هيئته أخذ يطوي المسافة بينه وبين جثمان جدك. اندس في الموكب، دفس كتفه تحت النعش، كان يسير بعزم وهمة مع السائرين في اتجاه المقابر. لم تمنعه بدانته ولا قدمه البديلة عن المشي لأكثر من نصف ساعة. هي المرة الأولى التي أراه فيها بدون سيخه الحديد، وبدون فردة الشراب البُنية، وهي المرة الأولى التي يظهر فيها ضعيفا، لم يكن هذا أبدا هو تادرس الذي اشترى منذ عدة أشهر "طبنجة 9 مللي" وأطلق من فوهتها عدة أعيرة في فجر أحد الأيام. هل كان يُجربها، أم يجرب دقة تصويب يده؟ منامته تحت بئر السلم محدودة، لكنه خبأها، أين خبأها، خلف برواز السيدة العذراء، أم خلف صورة الرجل الذي يصارع التنين؟ يمكنه أن يفككها ويضعها في تجويف قدمه الحديدية، فشلتُ في تحديد هدف طلقة تادرس القادمة.

غاب سبع ساعات كاملة بعد الدفنة، ثم فاجأني كما هي عادته، وقف بجواري في سرادق العزاء متربا ومغبَّرا، مد يده للقادمين، هز رأسه بعظة للمواسون، لم يجلس قبل أن ينفض العزاء.

ونحن عائدان الى المدينة حكى لي تادرس بإخلاص عن جزء جديد تماما من تاريخه، حكى عن تلك الفترة التي سقطت سهوا

من حكاياته لجدّك فعندما خرج من قريته مطرودا ومُهانا. بعد أن أنهى فترة تجنيده أقام عند أحد أقاربه في دار السلام. في منتصف الثمانينيات كانت تعيينات الحكومة لاتزال ممكنة، توسط له قريبه ليعمل في البلدية، كانت أدواته كلها لا تزيد على "غَلَقْ" كاوتش، ومكنسة بيد طويلة، كان كلما جلس على الرصيف يلتقط أنفاسه من غبار الطريق ويُدخن سيجارة، يمر رئيسه المباشر طويل اللسان ويوبخه:

"الحكومة عملتكم بني آدمين وبتديكوا مرتب، وبرضُه عنيكم فارغة. قوم فز لما اكون بكلمك".

لم يكن "قناوي" رئيسه المباشر منذ عامين سوى حامل لنفس "المكنسة" ونفس "الغلق"، وربما كان يقف في نفس الشارع، لكنه أصبح رئيسا للعمال لسبب ليس له فيه أدنى تدخل، فقط مرت عليه السنين فتخطى الأربعين بدون قصد. تكررت إهانات قناوي لتادرس، أصبح لا يتفاءل عندما يرى خياله مُقبلا عليه. لم يعد يود أن يرى ملامحه الغاضبة، ولا أنفه الطويل، كان قناوي رِبْعَة، أقصر كثيرا من تادرس، بكف واحد سيسقطه بلا حراك، لكنها القوانين.

في إحدى المرات التي تعوّد فيها قناوي طول اللسان، نهره تادرس، وقبل أن ينطق رئيسه المباشر بكلمة، جذبه تادرس من بدلته الكاكي، أخذ يهز فيه حتى وقعت من على رأسه برنيطة تشبه بيتا إنجليزيا، بانت صلعة قناوي وبدأ يحذَر من ذلك

"الصعيدي المجنون"، هكذا يطلق عليه. أصبح تادرس بعد ذلك يجلس على الرصيف، يدخن بمزاج، يضع ساقا على ساق دون أن يتجرأ عليه قناوي. أمام شباك صرف المرتّب لم يجد سوى تسعة جنيهات من خمسة عشر، وكما توقع، كل الجنيهات المخصومة منه بسبب جرة قلم من يد قناوي، ذلك القصير الدميم. قرر تادرس في نفسه شيئا بخصوصه، وقبل أن يكتمل التصور فيصبح مطرودا ومجرما، تحول مسار تصوره.. وقرر، سيترك لقناوي قذارة الشوارع وغبار الطريق. سلم عهدته التي لا تزيد عن "غلق" ومكنسة بيد طويلة، ترك دار السلام، سار وهو لا يعرف له وجهة محددة، هده التعب، رمى جسده بالقرب من بوابة قديمة وبداخلها تلال من القمامة الطازجة، كان ذلك هو أول عهد تادرس مع "الخرابات" بعد أن قضى في الخرابة عدة أشهر انتقل من واحدة لأخرى، حتى استقر في تلك التى تقابل بيتنا. تعرف بعد ذلك على جدك، كانا يجلسان أغلب الليالي على مصطبة أمام البيت، يدخن الجوزة ويرشف الشاي الثقيل الحبر.

يحفظ تادرس مقدار المسافة جيدا.. انتهت حكايته وبدأ صمته المرعب. فمه الكبير الذي يشبه فم مطرب شعبي مخيفا في صمته، نزلنا من الميكروباص، دخل تادرس "الخُنه" تحت بئر السلم، ودخلت أنا البيت، لكن بدون جدك هذه المرة.

حلم

ترك الأستاذ مرشدي حلم الكتابة يذهب بعيدا، لم يُكمل صفحة واحدة من السيناريو، كان يأمل أن ينتهي منه في أقرب وقت، الذهن يخون صاحبه، فكيف سيجلس أمام الورق الأبيض ويمسك قلما ويستجلب الذكريات ليحكي عنها، كيف سيبلور الأفكار ويرسم الشخصيات؟ انقلبت الموازين وأصبح الناس يصدقون السيد العبيط ولا يصدقون الأستاذ مرشدي، فحين حكى لهم السيد العبيط عما رآه فى منامه استمعوا له بانتباه:

"الشارع كله حيخش النار. شفت جلودكم وهيه بتتسلخ كإنها دبيحة. شفتها بتسيح وبتنقط من لحمكم زي الشمعة".

هكذا قال السيد فلم يتطيروا من كلماته، على العكس، طلبوا منه الدعاء لهم، فهو شخص مبروك ولابد أن كلماته غير المفهومة هى اللغة الوحيدة التي تُقرها السماء، فقط استغفروا وتعوذوا وانتظروا منه الرد:

"انتوا عايزيّني أدعيلكم كده ببلاش. عايز آكل لحمة".

قال وفمه نازل منه خيوط شفّافة تنتهي في عبّه.

لكن الأستاذ مرشدي لما حكى لهم عن الرجل الذي مات تحت كوبري بنها لم يصدقوه، قالوا إنه أصبح كالمجاذيب، يرى وحده ما لا يراه كل الناس. شرح لهم على مهل، كيف أن الوباء ينهش كل الأرواح في المدينة الكبيرة، البشر والقطط والكلاب، وحتى الحشرات في جحورها، لم يصدقوه. هز أحدهم رأسه وهو يزيح طاقيته الى الأمام، ويهرش في قفاه قائلا:

"بقى انتا عايزنا نصدقك انتا ونكدب الشيخ سيد؟".

لم يجد الأستاذ مرشدي ردا، ففضل الصمت.

كان المخرج الكبير قد طلبه في تأدية دور صعب، رفضه أغلب الممثلين، لكن الأستاذ مرشدي كان يتمسك دائما بالأدوار الصعبة.. قرأ الورق، أعجبه. أدخل عليه بعض التعديلات. بدأ تصوير أول مشاهد الفيلم في يوم ديسمبري، قال أنه ظل طويلاً يبحث في الشوارع عن سائق تاكسي عجوز ونحيف، ذاكرته تميزه بنظارته الكبيرة، كفأر يلبس نظارة قط، أكثر ما أعجبه في هذا الدور أنه سيمثل دور جد للمرة الأولى أمام الكاميرات، صنع له الماكيير العجوز بحرفية ماكياج لرجل عجوز يحتضر.. سيبدأ الفيلم بمشهد النهاية، ثم تعاود الأحداث المرور على الزمن بطريقة عكسية عبر خاصية "الفلاش باك".

صبح

طالت الليلة، لكن كل طويل في ماعون الزمن قصير. طلع الصبح، البهائم تسير لحالها، وتحمل على ظهورها أطفالا، الأطفال تلهو وتتأمل الغبار الطالع على استحياء من زحف الحوافر، البهائم تمضغ البرسيم ولا ترى إلا تحت أقدامها. رائحة الصبح فوّاحة، مزيج من الطين والروث والزرع. رائحة تمادى معها أول طيف رأيته لأنثى. كان من المفترض أن تصبح هذه الأنثى أمك يا يوسف، لكن الظروف لا تجيد التعامل معنا، كانت فارعة وطويلة، نحيفة مثل عود حطب، لم تمس النحافة تضاريس أنوثتها، نحافتها زائدة عن الحد. ووجهها ممتلئا، ووجنتاها لامعتين، ولها نغزتان لافتتان عندما تضحك، كانت تتفنن — رغم الشكليات الريفية الصارمة — في لبس ملابس ضيقة، تُظهر التقاسيم، في إحدى المرات تظاهرت وهي تسير في الشارع إلى جواري أن طرحتها الملونة على وشك الانزلاق من فوق رأسها، سحبتها سحبة واحدة ظهر على أثرها شعرها الناعم الطويل،

انفلت سارحا حتى أصبح كستارة تداري ظهرها وتتخطاه، فيما لا يزيد على ربع دقيقة كانت قد غطت شعرها مرة أخرى، في ربع دقيقة وبعد أكثر من عشرين عاما أستطيع وصف ما رأيته بدقة.

لو أصبحتْ تلك الأنثى أمك، لكانت ملامحك قد تغيرت كثيرا، كنت ستصبح طويلا ونحيفا، وفي خديك نغزتان.

لا..

ربما لم يقدَّر لك أن تأتيَ إلى هنا أصلا، كان الزمن سيهبك منحة حتى تصبح طولي وربما أطول. كان من الممكن أيضا ألا تأتيَ أبدا، فربما كانت لن تلدك لو تزوجتها. أخذتَ من أمك عينيها الواسعتين وطولها المحدود وصدرها المفرود، وصوتها العالي.

لم ترأف بحالي، تركتْني أتنفس من أنبوب الوحدة، فجمعتُ كل خطاباتها، وكل ما تذكَّرتها به، ثم أضفت من عندي بعض الأشياء غير المهمة. أريد أن أُكبِّر الكوم، كنت في أشد الاحتياج إلى ذكريات زوجة. بعد أن جمعت ما خطته بيدها، وجمعت أيضا برفاناتها المميزة، كانت أسرع الطرق إلى تذكرها، جمعت كذلك أشياء أخرى لمجرد أن لها بها علاقة، دبدوب خاطت له مؤخرته الموسيقية وهي تشاهد مسلسل المساء، شنطة يد قديمة، جراب موبايل.

صداع متقطع يقرع رأسي الآن، ركنت ظهري على أقرب جدار، ملابسي في طريقها التدريجي لتصبح بلون الأرض. أغمضت عيني، على أعلى غصن من شجرة الكافور العالية لمحتك، ببنطلون ترنجك رفانلتك الحمّالات، بشعرك الأصفر الطويل، كنت تلوّح بيدك وتبتسم ابتسامتك المشهورة، فتظهر على أثرها أسنانك الكبيرة المفلوجة. قفزتَ أمامي، جلستَ بجواري، حدّثتني عن حكايات طيفية، بالكاد أتذكرها.

الجو خريفي معتدل، لكنك كنت متدثرا بملابس ثقيلة، تمشي ولا تلمس الأرض. صعدتَ لشجرتك مرة أخرى، عدت لفانلتك الحمالات، وكأنه لا توجد عندك مواقيت خريفية، تقف وقفتك الشامخة المميزة، دخلت تجويف شجرة الكافور، غطاك لحاؤها، كانت ملابسك الصغيرة تميل أيضا إلى الاخضرار، وكأنها غُزلت من وريقة.

سأذهب الآن يا يوسف، أستسلم للمسلسلات التي تتحدث عن قشرة الحياة، تنهشني كأظافر تشق طريقها في قطعة زُبد، أرى أحبالاً كثيرة تروح وتجيء أمامي كبندول ساعة، مركزها قبضة يدك، ضحكك، بكاؤك، وقفتك صامتا عندما تخطئ، تلف عينك بطريقة دائرية من دون مركز، تركب دراجتك الصغيرة، ترفع بها حصانا في الهواء، تصاحب "عم محروس" العجلاتي من أجل

أعطالها التي لا تنتهي، تشتعل الذاكرة فتطوي سنواتك السبع في ثوانٍ خاطفة.

انصرفتُ، وأنا أحمل أعبائي بين خلاياي. حاولت أن أتذكر مرة أخرى حرفًا مما حكيته لك ففشلت. تركتُ الممر الترابي الذي يربط البوابات الخضراء بعضها البعض، ابتعدت عنك، تلاشت الارتباطات التي طبختها مخيلتي، ذهبت جميع الكائنات لحالها، كان المسير صعبا، ثقيلا، وكأن قدميَّ تَجُرّان بسلَبة كلُّ ما توصلتْ إليه ذاكرتي. أفكر الآن يا يوسف في كائناتي المكتَشَفة. أراها تلبس أرواحها أمامي وكأنها ولدت بالفعل، في مكان ما، من جديد.

تنويه

الفقرة الخاصة باللون الموف مقتبسة من كتاب سحر الألوان من اللوحة إلى الشاشة للأستاذ سعيد الشيمي.

شكر

شكرا للأساتذة والأصدقاء:

شعبان يوسف، عماد العادلى، د.محمد إبراهيم طه، د.فاتن حسين . لما بذلوه من جهد فى طرح الاقتراحات.

عن الكاتب

عمرو على العادلى

صدر له:

(1) خبز أسود (مجموعة قصصية)..دار ملامح للنشر 2008

(2) جوابات للسما (مجموعة قصصية) دار ملامح للنشر 2009

(3) فيل يتدرب على الإنسانية (كتاب ساخر بالعاميّة المصريّة) دار ملامح للنشر 2010

(4) إغواء يوسف (رواية) دار ميريت 2011

(5) حكاية يوسف إدريس (مجموعة قصصية) سلسلة كتابات جديدة بالهيئة العامة الكتاب 2012

(6) كتالوج شندلر (رواية) دار نهضة مصر 2013

(7) الزيارة (رواية) دار أكتب 2014

للتواصل

amr_ali_adly@yahoo.com



سارت الليلة في الطريق الذي رسمه خيالي. أحاسيس متوهجة تميل للنشوة. بين تلاوات الشيخ وتهليلات الحاضرين. بين الاستراحات لعب الدراويش دورهم بمنتهى الإخلاص. كانوا يطوفون برؤوسهم وبين أياديهم الدفوف البيضاء. أقدامهم ثابته. بدهر مكانها بقوة في الأرض. أمّا خيالهم فسارح في الملكوت. يندمجون برغبة فيما يفعلون. أوصلتهم حركاتهم قرب نهاية الليلة لما يشبه الغيبوبة. تهتز عمائمهم على رؤوسهم. فلا يبالون. تقع. يدوسون عليها. فلا يشعرون. يختلط بموجاتهم بعض الأقارب والجيران. ينضمون للصف. منهم من يصل لنفس الحالة ومنهم من ينتظر. أصبحوا كنسيج في ثوب واحد. يستمعون لأصوات ربما هم أنفسهم لا يعرفون لها مصدرا. غامت نظرات الدراويش. اختلط بياض العيون بسوادها. لا يرون شيئا. كل ما يحرصون عليه هو تماسك أقدامهم عند ذات النقطة. يحركون كفوف أرجلهم في اتجاه جذوعهم والكعوب ثابتة. يتمايلون كموجة نائمة في بحر. لا نعرف على وجه الدقة أين ستهدأ أو تستقر.

غلاف: محمد عبد

